

في ظلال الإسلام

٢١

نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي

أ. د. عز الدين فراج





طباعة وتوزيع دار المعارف

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر
المؤلف ولا تعبر عن وجهة نظر الناشر

تصميم الغلاف: هاجر محمود

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع النظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

<http://gate.dar-elmarf.com>

بين يدي هذا الكتاب

الغرب ليس شيئاً واحداً.. ومنهاج التمييز- فى الغرب- بين الإيجابيات والسلبيات هو منهاج إسلامى أصيل، أكد عليه القرآن الكريم عندما تحدث عن «الآخرين» فقال:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾

(آل عمران: ١١٣)

ولذلك فعلى العقل المسلم أن يميز فى «الآخر الغربى» بين «الإنسان الغربى» الذى لا مشكلة لنا معه، و«العلم الغربى»، الذى فيه ما هو «مشترك إنسانى عام» كالماء والهواء، تتلمذ أهله على الحضارات الشرقية- وفى مقدمتها الحضارة الإسلامية- ويجب أن نتلمذ عليه ونسعى إلى طلب حقائقه وقوانينه.. يجب أن نميز- فى الآخر الغربى- بين هذا الإنسان وهذا العلم وبين مؤسسات الهيمنة الغربية- السياسية والدينية- الطامعة- تاريخياً وحالياً- فى استعمار الشرق لنهب ثرواته، وإحاقه هامشاً للأمن الغربى وتابعا للمركزية الحضارية الغربية.

ولهذه «الحقيقة المنهجية» فإن علينا أن نميز فى «الفكر الغربى» بين افتراءات الجهلاء وبين إنصاف العلماء. بالغرب، وعلينا أن نرد على افتراءات الجهلاء الغربيين - الذين يزدرون ديننا ومقدساتنا- بالشهادات الغربية التى أنصفت الإسلام وتحدثت بإعجاب وانبهار عن نبي الإسلام- عليه الصلاة والسلام- ولو أن الجاليات الإسلامية- فى الغرب- وعت هذا المنهج، وأعدت نشر الشهادات الغربية التى تنصف

الإسلام وتثنى على رسوله لحدث ترشيد كبير للعقل الغربى المعاصر، الذى تغرقه الآن أكاذيب الإعلام الذى يرتزق أهله من صناعة الكذب على الإسلام والمسلمين.. وصدق الله العظيم: ﴿وَتَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢).

لقد احترفت مؤسسات الهيمنة الغربية- وخاصة منذ حقبة الحروب الصليبية (٤٨٩- ٦٩٠هـ/١٠٩٦- ١٢٩١م)- التى أرادت بها إعادة اختطاف الشرق من التحرير الإسلامى الذى أنقذ الشرق من غزوة الإسكندر الأكبر (٣٥٦- ٣٢٤ ق.م) التى استمر قهرها عشرة قرون.

احترفت هذه المؤسسات الاستعمارية- السياسية والدينية- «صناعة الكذب والافتراء» لتشويه صورة الإسلام ورسول الإسلام- ﷺ - وذلك لشحن الدهماء والغوغاء فى بلادها فى الحروب الاستعمارية، التى أرادت من ورائها الغزو لاحتلال الأرض ونهب الثروات.. وعلى العقل المسلم أن يقدم للإنسان الغربى المعاصر شهادات علماء ومثقفيه ومفكره، التى رصدت هذه الافتراءات بل وسخرت منها، وذلك لتحرير هذا العقل الغربى المعاصر من أسر «ثقافة الكراهية السوداء» التى ترسخت فى المخزون الثقافى الغربى لعدة قرون.

وإذا نحن أردنا الإشارة إلى نماذج من هذه الشهادات الغربية على هذه الافتراءات، فإننا نستطيع أن نشير- على سبيل المثال- إلى شهادة المستشرق الفرنسى الكبير «مكسيم رودنسون» (١٩١٥- ٢٠٠٤م)- وهو من أصل يهودى- والذى تحدث عن الصورة الغربية التى صنعها العقل الصليبي لرسول الإسلام- تلك الصورة التى يعاد تقديمها أفلاما ورسوما

ومقالات هذه الأيام!! لقد تحدث «مكسيم رودنسون» عن هذه الصورة الصليبية فقال:

«لقد حدث أن الكتاب اللاتينيين، الذين أخذوا على عاتقهم بين سنة ١١٠٠م وسنة ١١٤٠م إشباع حاجة الإنسان العامى إلى كراهية الإسلام ورسوله.. أخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد، دون اعتبار للدقة، فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المنتصر» فى الحروب الصليبية.. فكان محمد- فى عرفهم- ساحرا، هدم الكنيسة.. فى إفريقيا والشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية!.. وكان محمد- كما صورته الملاحم الشعبية الغربية- الصنم الرئيسى الذى يعبده المسلمون!.. وكان معظم الشعراء الجواله يعتبرونه كبير آلهة البدو.. وكانت تماثيله- حسب أقوالهم- تصنع من مواد ثمينة، وذات أحجام هائلة!!.

هكذا حكى «مكسيم رودنسون» طرفا من الصورة التى زيفها العقل الصليبي لرسول الإسلام، والتى صاغها هذا العقل شعرا وملاحم شعبية أشاعها الشعراء الجوالون باسم الجماهير والدهماء، لتستقر فى مخزون الثقافة الغربية ولتشيع فى الكتب الدراسة، وليستدعيها الرسامون ومنتجو الأفلام فى هذه الأيام!.

وغير شهادة مكسيم رودنسون، يحكى المفكر الألماني «هوبرت كומר»- فى كتابه (صورة الإسلام فى التراث الغربى)- «كيف أن الأوربيين ادعوا أن رسول الإسلام كان كاردينالا كاثوليكيًا، تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا. فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق

انتقاماً من الكنيسة. واعتبرت أوروبا المسيحية- في القرون الوسطى-
محمدا المرتد الأكبر عن المسيحية، الذي يتحمل وزر انقسام نصف
البشرية عن الديانة المسيحية»!.

ويكشف هذا المفكر الألماني- «هوبرت كومر»- عن أن هذه الصورة
الصليبية الزائفة لرسول الإسلام قد شارك في صنعها كبار الفلاسفة
والقديسين والمفكرين الغربيين!.. فأكبر فلاسفة الكاثوليكية «توما
الإكويني» (١٢٢٥-١٢٤٧م) يقول عن رسول الإسلام- ﷺ- «إنه هو
الذي أغوى الشعوب من خلال وعوده الشهوانية، وقام بتحريف جميع
الأدلة الواردة في التوراة والأنجيل من خلال الأساطير والخرافات التي
كان يتلوها على أصحابه ولم يؤمن برسالة محمد إلا المتوحشون من
البشر، الذين كانوا يعيشون في البداية»!.

هكذا زيف أكبر فلاسفة الكاثوليكية صورة نبي الإسلام، الذي جاء
بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية جميعاً!.. والذي أعلن
أنه لا يفرق بين أحد من رسل الله.. وبأليت توما الإكويني كان حياً
اليوم ليرى حفاظ الإسلام والمسلمين على الأسرة والعفة، في الوقت الذي
أفلست فيه كثير من «الأبراشيات» الغربية بسبب التعويضات التي تدفع
للأطفال ضحايا الاعتداءات الجنسية من كبار وصغار رجال الدين!..

وإذا كان واقعنا المعاصر يشهد تدنيس المصحف الشريف بل وإحراقه-
من قبل كنائس بروتستانتية غربية- فإن المفكر الألماني «هوبرت كومر»
يكشف لنا حقيقة أن هذه الكنائس البروتستانتية إنما تغترف من ثقافة
الكراهية السوداء التي وضع أسسها زعيم البروتستانتية «مارتن لوثر»

(١٤٨٣-١٥٤٦م) الذى وصف القرآن الكريم بأنه: «كتاب بغيض وفضيع وملعون وملئء بالأكاذيب والخرافات والفظائع»!!.. ثم نصح أتباعه بتزييف صورة القرآن، فبدلاً من فهم آياته ومقاصده، دعا إلى استخدام الصورة المزيفة لترجمة القرآن فى «إزعاج محمد والإضرار بالمسلمين.. فيجب أن تكون هذه هى المقاصد من وراء ترجمة القرآن وتعرف المسيحيين عليه.. وعلى القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضاً ليقوى إيمانهم بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب ضد الأتراك المسلمين، وليضحوا بأموالهم وأنفسهم فى هذه الحروب»!! - كما قال مارتن لوثر!

أما المستشرقة الألمانية «سيجيريد هونكه» (١٩١٣-١٩٩٩م) فإنها تحكى- فى كتابها (العقيدة والمعرفة)- كيف صورت الكنيسة الأوربية «بلاد الإسلام عالماً من الخرافات والأساطير، عبدة الشيطان، والصحرة المتضرعين إلى الشيطان.. بلاد الأضاحى البشرية من أجل صنم ذهبى، تسهر على سلامته عصابة من الشياطين اسمه محمد»!!.

وكى لا يصاب البعض باليأس والقنوط والإحباط من إمكانية إزالة هذه الصورة «الكريهة والشوهاء» التى صنعها العقل الصليبي للإسلام ورسوله ومقدساته.. علينا أن نفتح الأبواب للشهادات الغربية الرائعة التى أنصفت رسول الإسلام، وجعلته المثل الأعلى للأنبياء والمصلحين على امتداد التاريخ.. وذلك لنطبق المنهاج القرآنى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ولنرد على افتراءات الجهلاء، بإنصاف العلماء.. ولنزيل سيئات الغربيين بحسنات الغربيين!.

لقد استخدم الكاتب الإنجليزى «توماس كارليل» (١٧٩٥-١٨٨١م) المنطق العقلى فى إنصاف الإسلام وتعظيم رسوله . فقال : «لقد ظلت الرسالة التى دعا إليها هذا النبى سراجا منيرا مدة اثنى عشر قرنا من الزمان لملايين كثيرة من الناس.. وهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين وماتت عليها أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع؟!.. إن الرسالة التى أداها محمد لهى الصدق والحق . وما كلمته إلا صوت حق صادر من العالم المجهول.. وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله ، وذلك فضل الله يؤتیه من يشاء».

وعلى درب الإنصاف هذا يسير الفيلسوف الاجتماعى الأيرلندى الشهير «برنارد شو» (١٨٥٦ - ١٩٥٠م) الذى قال عن رسول الإسلام ﷺ كلاما نفيسا.. والذى تنبأ بما نراه اليوم من إقبال الأوربيين على اعتناق الإسلام قال : «إن محمدا هو منقذ الإنسانية.. وإننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم كله لثم النجاح فى حكمه ، ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته حلا يكفل للعالم السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة.

لقد تنبأت بأن «دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا فى الغد القريب وقد بدأ يكون مقبولا لديهم اليوم.. ولقد بدأت أوربا تعشق عقيدة محمد ، وأن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ ، وفى القرون القادمة قد تذهب أوربا إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها»!

نعم.. لقد رأى «برنارد شو»- ببصيرة قلب الفيلسوف- أن أوربا «ستعترف بفائدة الإسلام فى حل مشاكلها».. وبعد قرون من هذه

النبوءة، كتبت المجلة الفرنسية الرصينة (التحديات) سنة ٢٠٠٨م-
إبان زيارة بابا الفاتيكان لفرنسا- عن أن الإسلام هو الحل لأزمة
الرأسمالية الغربية- وليست تعليمات البابا!- فقالت:

«إنه في حين يمر العالم بأزمة مالية تجتاح جميع معالم النمو في
طريقها، يجب علينا قراءة القرآن بدل نصوص البابوية ولو طبق رجال
البنوك- الطامعون بالمرود السريع على الأموال الخاصة- ولو قليلا
الشريعة الإسلامية، ومبدأها المقدس: «المال لا ينتج المال»، فإننا لم نكن
لنصل إلى ما وصلنا إليه!». .

بل وكتبت مجلة الفاتيكان «أوسير فاتور رومانو» في ذات العام
تقول:

«إن التعليمات الأخلاقية التي تركز عليها المالية الإسلامية قد تقوم
بتقريب البنوك إلى عملاتها بشكل أكثر من ذي قبل، فضلا عن أن هذه
المبادئ قد تجعل هذه البنوك تتحلى بالروح الحقيقية المفترض وجودها
في كل المؤسسات التي تقدم خدمات مالية؛ فبريق الصيرفة الإسلامية
هو الحل للمأزق الذي يمسك بخناق البنوك الغربية!». .

هكذا وضع علماء غربيون الإسلام مثلا أعلى... وتنبأ بعضهم بظهور
الإسلام على الدين كله، ولو كره المشركون والكافرون والمفترون.
إن الشهادات الغربية التي أنصفت رسول الإسلام ﷺ والتي ارتفعت
به وبرسالته إلى مكان المثل الأعلى عبر القرون والحضارات إنما هي
معين لا ينضب، للرد على افتراءات الجهلاء الذين احترقوا ازدراء
الإسلام ورسوله ومقدساته.. كما أنها زاد طيب يغذى «العزة الإسلامية»

و «الكبرياء الإسلامى المشروع» الذى يكسر شوكة النظرة الدونية التى يصنعها نفر من الغربيين للإسلام والمسلمين.

وعلى درب هذه الشهادات الغربية، تأتى شهادة شاعر فرنسا الشهير والكبير «لامرتين» (١٧٩٠-١٨٦٩م) التى يقول فيها عن رسول الإسلام - ﷺ -:

«إن حياة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخرعبلات قبيلته، وثباته ثلاثة عشر عاما يدعو دعوته وسط أعدائه، وتقبله سخرية الساخرين والهازئين، وحميته فى نشر دينه، وإيمانه بالفوز، ورباطة جأشه، وتطلعه إلى إعلاء كلمة الله، كل ذلك يدل على أنه لم يكن يضرر خداعا أو يعيش باطلا.

وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزدوجا، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة. الأولى تدل على من هو الله، والثانية تنفى ما ألقاه الوثنيون به. الأولى حطمت آلهة كاذبة، والأخرى فتحت طريقا إلى الفكر والتأمل.

لقد كان محمد فيلسوفا وخطيبا ومشرعا وقائدا وفتح فكر، وناشر عقائد تتفق مع العقل، ومنشئ عشرين دولة فى الأرض، وفتح دولة فى السماء من الناحية الروحية.

أى رجل قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه؟! ولو كان مقياس العظمة هو إصلاح شعب متدهور، فمن ذا يطاول إلى مكان محمد؟!

لقد سما بأمة متدهورة، ورفعها إلى قمة المجد، وجعلها مشعلا للمدنية وموردا للعلم والعرفان.

ولو كان مقياس العظمة في توحيد البشرية المفككة الأوصال، فمن أجدر بهذه العظمة من محمد، الذى جمع شمل العرب وجعلهم أمة عظيمة وإمبراطورية شاسعة؟! ولو كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء على الأرض، فمن ذا الذى ينافس محمدا، وقد محا مظاهر الوثنية ليقيم عبادة الخالق وحده؟! ولو قسنا العظمة بالنصر الحربى، والنفوذ والسلطان، فمن يدانيه فى هذا المضمار؟! لقد كان يتيما لا حول له ولا قوة، فأصبح ملكا عظيما، ومؤسسا لإمبراطورية دامت ثلاثة عشر قرنا من الزمان. ولو كان مقياس العظمة هو الأثر الذى يخلده فى النفوس على مر الأجيال، فيها هو محمد يمجده مئات الملايين من الناس فى مختلف البقاع، مع تباين أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم».

وعلى درب هذه الشهادة - شهادة الصدق - التى تقطر كلماتها الذهبية بالمحبة والإخلاص، والتى يشيع المنطق العقلى فى سطورها وعباراتها - شهادة شاعر فرنسا الأشهر «لامرتين» - يسير المستشرق الفرنسى «إميل درمنجم».. الذى تحدث عن رسول الإسلام - بعد دراسة لآثاره وتاريخه - فقال:

«لقد جاء نبي الإسلام يدعو العلماء ليفقهوا ما يقولون، وليقوم ما يتيه فيه الحكماء من الطرق المعوجة فالناس حين يستمعون لكلامه الموحى إليه به يعود إليهم سابق اتصالهم بالسر المحيط بهم، مهتدين إلى مبدأ حتى لا يجدون مثله فى نوائج الفلاسفة وأقطاب السياسة والاجتماع.

ويكفى أن نشير إلى أن نبى الإسلام قد ظهر فى وقت من أشد أوقات التاريخ ظلما، فى وقت كانت فيه الحضارة مضطربة متداعية.

ولقد كان القرآن هو معجزة محمد الوحيدة، فأسلوبه المعجز، وقوة إيحائه التى لا تزال لغزا إلى يومنا هذا، يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد يتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله.. ولا ريب فى أن كل آية منه. ولو أشارت إلى أدق حادثة فى حياته الخاصة، تأتية بما يهز الروح بأسرها من المعجزة العقلية.

ولا يستطيع أحد أن يشك فى إخلاص محمد، فحياته- مهما كانت وجهة النظر فيها- شاهدة على اعتقاده صدق الأمانة الثقيلة التى حملها ببطولة، كما كانت قوة إبداعه، وعبقريته الواسعة، وذكاؤه العظيم، وبصره النافذ، وقدرته على ضبط نفسه، وعزمه المكين، وحذره وحسن تدبيره، وطراز عيشه.. كلها شاهدة على صحة عقل هذا النبى الموهوب الذى أوحى إليه بمعجزة القرآن».

وعلى حين افترى كثير من الغربيين- ومن المتغربين- على موقف الإسلام ورسوله ﷺ من المرأة.. وجدنا المستشرق الفرنسى الكبير «أندريه سرفيه» يكشف الزيف عن هذا الجانب من رسالة رسول الإسلام، ويعلن أن محمدا هو «محرر المرأة».. ويقول:

«لقد حرر محمد المرأة العربية، ومن أراد التحقيق بعناية هذا النبى بالمرأة فليقرأ خطبته فى حجة الوداع التى أوصى فيها بالنساء خيرا، وليقرأ أحاديثه الكثيرة.. «اتقوا الله فى النساء، واستوصوا بهن خيرا».. لم يتحدث هذا النبى عن المرأة إلا فى لطف وأدب.. وكان يجتهد

دائماً في تحسين حالها ورفع مستوى حياتها.. لقد كان النساء قبله لا يرثن، بل كن متاعاً يورث لأقرب الرجال؛ وكأنهن مال أو رقيق. وعندما جاء الرسول قلب هذه الأوضاع، فحرر المرأة، وأعطاهما حقوقهما».

وعلى حين افترى غربيون.. ولا يزالون يفترون، فيزعمون أن رسول الإسلام ﷺ قد نشر دينه بالسيف والعنف والإكراه.. فلقد شهد المستشرق الفرنسي الكبير «الكونت هنري دي كاستري» (١٨٥٠-١٩٢٧م) على أن العقل والمنطق والموعظة الحسنة كانت هي السبل التي انتشر بها الإسلام.. فقال:

«ليس هناك مثل واحد يذكر للدلالة على أن محمداً أرسل حملة واحدة يحمل فيها أمة بالقوة على اعتناق الإسلام. وليست هناك حادثة واحدة سألت فيها النبي إنساناً أن يؤمن به وسامه العذاب عندما رفض ذلك. لم يحدث شيء من هذا قط، بل على النقيض منه، فقد عمل الكافرون جاهدين على ارتداد المسلمين عن دينهم.

ولقد لجأ أتباع محمد إلى الفتح، وهو سبب لا حرج فيه، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشهم المظفرة التي سارت سير الصواعق إلى الشام وشمال إفريقيا وعبر البحار، إلا إنهم مع ذلك لم يتركوا أثراً للظلم والتعسف في طريقهم، فلم يقتلوا أمة أبت الإسلام.

ولما استولى عمر بن الخطاب على مدينة أورشليم لم يلحق بالمسيحيين أى ضرر ولكن عندما استولى المسيحيون - (الصليبيون) - على تلك المدينة قتلوا المسلمين من غير إشفاق، وأحرقوا اليهود بلا رحمة.

لقد انتشر الإسلام في جميع القارة الآسيوية بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، ولم ينشأ عنه عسف ولا اضطهاد حتى إن حكام المسلمين

احترموا مدينة «بيناريس» لاعتبارها عند الهند مدينة مقدسة، مع أن أهلها كانوا وقتئذ من البراهمة. ومن هذا يتحقق أن الدين الإسلامى لم ينتشر بالعنف والقوة، بل الأقرب للصواب أن يقال: إن كثرة مسألة المسلمين ولين جانبهم كان سببا قويا فى انكماش دولتهم بعد ذلك!.

وإن أكبر دليل على أن الإسلام قام على أكتاف البيان والحجة، قبل أن يقوم على السيف، بقاء الإسلام موطن الدعائم بالرغم من ضعف الدولة العربية الكبرى، دون أن تعود أى أمة إلى ما كانت عليه».

وعلى حين زعم بعض الغربيين انتفاء تميز الإسلام عن الشرائع الدينية السابقة، لمح الكاتب الأمريكى الجنرال «ر.ف بودلى» (١٥٤٥-١٦١٣م) امتياز الإسلام بجمعه بين الروح والمادة.. بين الدين والدنيا.. وجمعه كذلك بين قوة الدولة وبساطة أهل القلوب.. فقال:

«لقد كان محمد على نقيض من سبقه من الأنبياء.. فإنه لم يكتف بالمسائل الإلهية، بل تكشفت له الدنيا ومشاكلها فلم يغفل الناحية العلمية الدنيوية فى دينه، فوفق بين دنيا الناس ودينهم، وبذلك تفادى أخطاء من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملى لقد شبه الحياة بقافلة مسافرة يرعاها إله، وأن الجنة نهاية المطاف.

ولقد أوضح محمد، منذ اللحظة الأولى، أن الإسلام يقوم على البساطة، ولقد اعتنق أصحابه تلك المبادئ حتى بعد موته.. وحتى عندما حقق النبى انتصاره الأكبر، ودخل مكة، وحطم أصنام الكعبة. وأتم فيها أهم جزء من رسالته بتطهير بيت الله من الأوثان، نام على قطعة من

الحصير، كما كان ينام وهو أجير يقود القوافل للقرشيين ولخديجة بنت خويلد فلا غرور ولا أبهة.

وعندما كان صوت المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة خمس مرات في كل يوم مناديا: «الله أكبر. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدا رسول الله» كان هذا الرنين الحلو ينساب من فوق مآذن المساجد في أنحاء العالم، وأنه لرنين يهز قلوب الناس ومشاعرهم أيا كانت عقيدتهم». ولقد تجاوزت هذه الشهادات الغرب الأوربي والأمريكي، إلى الشرق الأوربي، فكتب الفيلسوف الروسي «تولستوى» (١٨٢٨-١٩١٠م) يقول: «لقد كان محمد من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة. ويكفيه فخرا أنه هدى أمته برمتها إلى نور الحق. وجعلها تنجح للسلام وتكف عن سفك الدماء، ويكفيه فخرا أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا من أوتي قوة وحكمة وعلماء. وفي سنى دعوته الأولى احتتمل كثيرا من الاضطهادات، لم تثن من عزمه، بل ثابر على دعوة أمته. ومن فضائل الدين الإسلامى الاعتراف بنبوته موسى وعيسى، والوصية خيرا بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم، فلقد أمر بحسن معاملتهم، بل لقد سمح لأتباعه بالتزوج من أهل الديانات الأخرى، ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما فى هذا من التسامح العظيم». وإذا كانت دائرة المعارف البريطانية- وهى أوثق وأشهر دوائر المعارف الأوربية- قد قالت عن رسول الإسلام ﷺ:

«لقد كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة، وأكثرها توفيقا ونجاحا». فإن الشهادات المنصفة لدين الإسلام ورسول الإسلام قد تجاوزت

حدود الغرب والشمال إلى الشرق والجنوب.. فقرأنا لزعيم الهند وناسكها ومحررها وشهيدها المهاتما «غاندى» (١٨٦٩ - ١٩٤٨م) قوله :

«لعلاقتي الوثيقة بالمسلمين، وللألفة والصدافة التي جمعت بيني وبين كثيرين منهم، والتي لم تتراخ على مر السنين، فلقد شعرت برغبة فى دراسة حياة الرسول الكريم وشرعت بذلك فى إفريقيا الجنوبية، إلا أنى لم أكن فى ذلك الحين ملما باللغة الأوردية إماما كافيا.

ولقد أتاح لى سجنى المتتابع فرصة قراءة كتب سيرة هذا النبى الكريم.. ولقد أدت بى هذه الدراسات إلى الاعتقاد بأن القرآن والتوراة كتابان مقدسان. فقدستهما أنا بنفسى، كما أقدم كتابينا : «الويدا» و «غيتا». لقد كان محمد نبيا عظيما، وكذلك كان المسيح، ولقد أصبحت أعتقد أنهما كانا لا ينشدان إلا الحق، وكانا يخافان الله.

لقد لاقى محمد كثيرا من الاضطهادات، ولكنه كان شجاعا، لم يخف غير الله، ولم يرهب أى إنسان.

كان النبى العظيم فقيرا، زاهدا فى متاع الدنيا، فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أن يكونه ثريا لو أراد.

لقد ذرفت الدموع وأنا أقرأ تاريخ ذلك الرجل العظيم، إذ كيف يستطيع باحث عن الحقيقة مثلى أن لا يطأطأء الرأس أمام هذه الشخصية التى لم تعمل إلا من أجل البشرية كلها؟!.

تلك نماذج من شهادات كوكبية من العلماء العظماء لنبي الإسلام ورسول الإنسانية ورحمة الله للعالمين.. يستطيع العقل المسلم أن يرد

بها على الافتراء والازدراء الذى يصدر من السفهاء الجهلاء ضد الإسلام ورسوله ورموزه ومقدساته.. ذلك أن منهاج:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (يوسف: ٢٦)

والإيمان بأن «الآخرين ليسوا سواء».. هما منهاجان أصيلان من منهاج «التدافع الفكرى» فى حضارة الإسلام..
وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى الْعَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ حَظَّ عَلَيْهِمُ﴾ (فصلت: ٣٣-٣٥).

إنها قبسات اقتبسناها من هذا الكتاب الرائع: الذى قدمه العالم الجليل الأستاذ الدكتور عز الدين فراج- قبل ستين عاما- سنة ١٩٥٣م- كتاب (نبي الإسلام فى مرآة الفكر الغربى).. والذى نقدمه للقراء فى ذكرى ميلاد الحبيب محمد بن عبد الله- عليه الصلاة والسلام-.
سائلين المولى- سبحانه وتعالى- أن ينفع به.. إنه خير مسئول وأكرم مجيب.

دكتور محمد عمارة

مقدمة

تخرج لنا دور النشر والصحافة والإذاعة فى الشرق كل يوم صورا متباينة عن عظمة نبينا الكريم وسيرته العطرة. بأقلام شرقية، وعقليات إسلامية. ولكن الشيء الذى تتوق إليه عقولنا بين حين وآخر هو أن نعرف كيف صور قادة الفكر الغربى عظمة هذا الرسول فهؤلاء بعقلياتهم المختلفة وتفكيرهم المتباين ومنطقهم الخاص، يفتحون أمامنا آفاقا جديدة من التأمل والتفكير، ويخلعون على حياة هذا الرسول ألوانا جديدة من الإجلال والإكبار. ويضيفون إلى سيرته صورا شائقة قشبية من العظمة والعبقرية.

وليست هذه الصور الرائعة المجيدة منبعثة من مكان واحد، بل هى صيحات تجاوبت أصدائها بين لندن وباريس ونيويورك وموسكو. وليست هذه السيرة المجيدة منبعثة من جوانب مفكر واحد أو فيلسوف واحد، بل منبعثة من مفكرين وفلاسفة، اختلفت أجناسهم، وتنوعت أقطارهم وتباينت عصورهم.

فهذه صيحة أرسلها الكاتب الإنجليزي الكبير توماس كارليل (١٧٩٥-١٨٨١م) يقول فيها: «لقد ظلت الرسالة التى دعا إليها هذا النبى سراجا منيرا مدة اثنى عشر قرنا من الزمان لملايين كثيرة من الناس.. وهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين وماتت عليها أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع؟!».

وهذه صيحة ثانية أرسلها «لامرتين» (١٧٩٠-١٨٦٩م) شاعر فرنسا الكبير يقول فيها :

«إن حياة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته ، وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته ، وثباته ثلاثة عشر عاما يدعو دعوته وسط أعدائه ، وتقبله سُخرية الساخرين والهازيين ، وحميته فى نشر دينه ، وإيمانه بالفوز ، ورباطة جأشه ، وتطلعه إلى إعلاء كلمة الله ، كل ذلك يدل على أنه لم يكن يضرر خداعا أو يعيش على باطل».

وهذه صيحة ثالثة أرسلها تولستوى (١٨٢٨-١٩١٠م) أكبر كاتب قصصى فى روسيا يقول فيها : «ويكفى محمد فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء.. ويكفيه فخرا أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم.. وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا من أوتى قوة وحكمة وعلما».

وهذه صيحة رابعة أرسلها برناردشو (١٨٥٦-١٩٥٠م) أكبر فلاسفة الإنجليز فى العصر الحديث يقول فيها :

«إننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم كله لتم النجاح فى حكمه ولقاده إلى الخير، وحل مشكلاته حلا يكفل للعالم السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة».

هذه صيحات صادقة انبعثت من الغرب تحمل ألوانا جديدة من المنطق والبحث والتفكير، وتخلع على سيرة نبينا الكريم صورا جديدة من العظمة والعبقرية.

فجدير بنا إذن أن نستمع بين حين وآخر إلى صيحات الغرب وتأملاته وفلسفاته.

العالم قبل الدعوة المحمدية فى مرآة الفكر الغربى

لكى يفهم القارئ دعوة من الدعوات يلزمنا أولا الإمام بحال الداعى فى ذاته.. ولأجل أن ندرك قدر دعوته يجب أن نعرف الحال التى كانت عليها البشرية قبل هذه الدعوة حتى ندرك قيمتها، وما صاحبها من جهد وجهاد.

جون لا بوم (١٨٠٦-١٨٧٦م) يصور العالم وبلاد العرب قبل الدعوة المحمدية:

كان العالم قبل مولد هذا النبى مملوءا بغيوم الاضطرابات والفتن والقلق، وفى إنجلترا كان «الأنجلو» ينازعون السكسونيين، وفى فرنسا كان أولاد «كلوفيس» (٤٦٥-٥١١م) متخاصمين متحاربين. أما فى إيطاليا فكان اسم الرومان، وهو ذلك الاسم الشامخ، قد فقد هيئته القديمة، وكانت روما، وهى رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم، تترنح وتضطرب، كلما ألم بها طائفة من ذكريات عظمتها الراحلة.

أما فى إفريقيا فكان اليونانيون والرومانيون أنفسهم، وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام، دائبين على امتصاص دم مصر، ساعين فى جعلها كالجثة الهامدة لا حس فيها ولا حركة.

وخلاصة القول: كان العالم مضطربا إلى حد كبير، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر والبطش أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير والإخاء.

واستطرد جون لابوم يقول: «كان فى بلاد العرب قبل الرسالة
المحمدية ثلاثة أديان:

(١) الموسوية.

(٢) العيسوية.

(٣) الوثنية.

وكان اليهود من أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على من يخالف
معتقداتهم. وكان من النادر أن تجد اضطهادات دينية فى تاريخ العرب
الأقدمين. وما وجد من هذه الاضطهادات فمنسوب إلى اليهود وحدهم.

أما الوثنيون فكانوا يمثلون السواد الأعظم من أهل البلاد. وكان
لكل قبيلة منهم آلهة خاصة بهم. وكان لهم آلهة من الملائكة والجن
والكواكب، وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله. فيتخذونهم شفعا
لهم عند الله، ويعبدونهم ويتوسلون بهم عنده. وكان منهم من يعبد
الكواكب فكنعان كانت تدين للقمر، وكانت حمير تعبد الشمس، وكان
بنو لخم يسجدون للمشتري.. وهكذا.

وكان العرب مغرمين بشرب الراح ولعب الميسر.. وكان من عاداتهم
أن يتزوج الرجل من النساء بقدر ما تسمح به أحواله المعيشية والمالية.
وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه، وكانت الأرملة تعد من ضمن ميراث
زوجها. ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء
الأب.. الأمر الذى حرمه الإسلام وعده زواجا ممقوتا.

وكانت المرأة عندهم متاعا يقتنى، وسلعة تباع وتشترى، ولا يهم
الرجل ما يصيب الأسرة من تفكك وانحلال وانهيال. وكان الزوج لا

يهمه أن يعدل بين أزواجه وحريمه، فكانت حقوق الزوجات مهضومة، ونفوسهن نائرة، وقلوبهن متنافرة.

وكان من تقاليدهم البغيضة وأد البنات ودفنهن أحياء، وكان الرجل إذا بشر بالأنثى توارى عن أهله حياء وخجلا.

وكان منهم من يعتقد بفناء الإنسان إذا رحل من هذا العالم، ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة، فكان هؤلاء إذا مات أحد أقرباؤهم يذبحون على قبره ناقية أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا معتقدين أن الروح عندما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى، وهي نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة، تأتيه بأخبار أولاده. وإذا كان الفقيد قتيلا تصيح قائلة: - اسقوني... اسقوني. وتظل تردد هذه الكلمة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه».

وإذا اكتفينا بهذا القدر من «جون لابوم» الفرنسي عن حالة العرب قبل الدعوة المحمدية، ثم انتقلنا إلى:

بوسورث سميث» (١٨٤٠ - ١٨٧٦م) الإنجليزى:

فإننا نجده قد وصفهم بأنهم ماديون، لا يعتقدون في الحياة بعد الموت، ولا يشعرون بمسئولية أعمالهم. كانوا يؤمنون بالأرواح الشريرة وينسبون إليها كل ما كان ينتابهم من علل وأسقام. وكان الجهل منتشرًا بينهم، وكانت الرذيلة متفشية إلى أبعد حد، حتى انعدمت كل رابطة في البلاد. أما أشعارهم فكانت مليئة بالفحش والاستهتار.. وشاعت الفاحشة بينهم، ولم يكن هناك رادع من نظام أو ضمير.

وبلغ مركز المرأة الدرك الأسفل كما يقول «بوسورث سميث» وغدت كالتعاب تباع وتشتري وتورث ولا ترث.

أما السير «وليم ميور» (١٨١٩-١٩٠٥م) فقد تناولهم من جانب آخر فقال:

لقد كانت عبادة الأصنام متأصلة في نفوسهم وتجرى في عروقهم.. بعد أن ملأت الخرافات والأوهام والخزعبلات فراغ عقولهم.. فكان لذلك أثر بالغ في كل أعمالهم وتصرفاتهم، أما عن حبيهم للعنف والحرب والقتال فوصفه قائلاً:

«كانت قبائلهم متنافرة، كل منها مستقل عن الآخر، لا تعرف الهدوء والاستقرار. وكثيراً ما كانت تدخل في حرب طاحنة مع القبائل المجاورة بلارحمة ولا هواده حتى القبائل التي كانت تربطها روابط القرابة والمنفعة كانت تتقاتل لأتفه الأسباب».

ولهذا يحق للمسيو «سيباستيان شارلتي» (١٨٦٧-١٩٤٥م) أن يقول كلمته المأثورة:

«لقد مات الشرق يموت دارا (٣٣٥-٣٣٠ ق.م) وعادت إليه الحياة على يد محمد».

و دارا هو ملك الفرس الذي حاربه الإسكندر (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) في القرن الرابع قبل الميلاد وقهره واحتل بلاده التي كانت أقوى أمم الشرق وقتئذ.

وظل الشرق كله بما فيه بلاد العرب غارقاً في مظاهر الضعف والخور حتى جاء نبي الإسلام فبعث دولة الشرق من جديد ونمت وترعرعت

وشببت وازدهرت بفضل دينه وتعاليمه فإذا بسلطانه يعود كما كان وإذا
بمجده يبعث من جديد، وإذا بالإمبراطورية العربية الإسلامية تمتد إلى
الهند شرقا وإلى بلاد أسبانيا غربا. .

نبي الإسلام في مرآة الفكر الإنجليزي

توماس كارليل

تناول توماس كارليل في كتابه الأبطال، حياة محمد بالبحث والتحليل قائلاً: من العار أن يصغى أى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين إن دين الإسلام كذب وأن محمدا لم يكن على حق، لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان، لملايين كثيرة من الناس، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين وماتت أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع؟! .

ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير، لأضحت الحياة سخفاً وعبثاً، وكان الأجدر بها ألا توجد. هل رأيتم رجلاً كاذباً يستطيع أن يخلق ديناً ويتعهده بالنشر بهذه الصورة؟ إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً من الطوب لجهله بخصائص مواد البناء، وإذا بناه فما ذاك الذي يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد، فما بالك بالذي يبني بيتاً، تبقى دعائمه هذه القرون العديدة وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس؟! .

وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً، متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع.. وما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق.

وما كلمته إلا صوت حق صادق صادر من العالم المجهول.. وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وهب جدلا أن لمحمد هفوات، فإنه ليس في مقدور هذه الهفوات أن تستر تلك الحقيقة الكبرى وهي أنه رجل صادق ونبي مرسل.

ثم استرسل توماس كارليل يقول: أحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع. ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأي، لا يعتمد إلا على نفسه، ولا يدعى ما ليس فيه، ولم يكن متكبرا ولا ذليلا، فهو قائم في ثوبه المرقع، كما أوجده الله. يخاطب بقوله الحر المبين أكاسرة العجم وقياصرة الروم. يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة، وللحياة الآخرة.

وما كان محمد بعابث قط. ولا شاب قوله شائبة لعب ولهم؛ فكانت المسائل عنده مسألة فناء وبقاء. أما التلاعب بالأقوال والعبث بالحقائق فما كان من عادته قط.

وكان «محمد» إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة.. انظروا إلى هذه الأرض، أليست من عجائب صنع الله؟! أليست آية من آيات عظمته.. انظروا إلى هذه الأرض هي التي خلقها الله لتمشوا في مناكبها ولتأكلوا من رزقها.. انظروا إلى هذا السحاب المسير في الآفاق كيف يتحول إلى ماء يروى الأرض ويخرج به النبات والزرع.. أليست أنتم معجزات؟.. لقد كنتم صغارا، وقبل ذلك لم تكونوا أبدا، ثم لكم جمال وقوة وعقل، ثم يأتيكم الشيب ثم تموتون، لقد كان الكون نفسه في نظره معجزة!.. لقد كان يرى كل ما كان يراه كبار المفكرين، وهو أن

هذا الكون المادى إنما هو فى الحقيقة لا شىء.. وهو ظل علقه الله فى الفضاء لا غير، وإن دل على شىء فهو يدل على أنه آية من آيات الله. ويزعم المتعصبون أن محمدا لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان، كلا وايم الله. لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس- المملوء رحمة وبرا وحنانا وخيرا ونورا وحكمة- أفكار غير الطمع الدنيوى وأهداف سامية غير طلب الجاه والسلطان.

ويزعم الكاذبون أنه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمدا وآثاره، حمق وسخافة وهوس إن رأينا رأيهم، أى فائدة لرجل على هذه الصورة فى جميع بلاد العرب، وفى تاج قيصر وصولجان كسرى وفى جميع ما بالأرض من تيجان!.

لم يكن كغيره يرضى بالأوضاع الكاذبة، ويسير تبعا للاعتبارات الباطلة. ولم يقبل أن يتشح بالأكاذيب والأباطيل، لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الكون والكائنات، لقد كان سر الوجود يسطع أمام عينيه بأهواله ومحاسنه ومخاوفه. لهذا جاء صوت هذا الرجل منبعثا من قلب الطبيعة ذاتها.. لهذا وجدنا الآذان إليه مصغية والقلوب لما يقول واعية. لقد كان يجول فى خاطره منذ رحلاته وأسفاره آلاف من الأفكار. ماذا أنا؟.. ما هى الحياة؟.. ما هو الموت؟.. ماذا أفعل؟ لقد أحس هذا الرجل ابن الصحراء أن هذه هى كبرى المسائل وأهمها. وكل شىء فى هذا الوجود عديم الأهمية بجانبها.

ثم استطرد توماس كارليل يصور شخصية هذا النبى الكريم إلى أن قال: «لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر

أموره وأحواله ، فكان طعامه عادة الخبز والماء ، وكثيرا ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار. فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟ فحيذا محمد من رجل متقشف، خشن اللبس والمأكل، مجتهد في الله، دائب في نشر دين الله، غير طامح إلى ما يطمح إليه غيره من رتبة أو دولة أو سلطان. ولو كان غير ذلك لما استطاع أن يلاقي من العرب الغلاظ احتراماً وإجلالاً وإكباراً؛ ولما استطاع أن يقودهم ويعاشرهم معظم وقته، ثلاثاً وعشرين حجة، وهم ملتفون حوله، يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله؟

لقد كان في قلوب هؤلاء العرب جفاء وغلظة، وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم، لهذا كان من يقدر على ترويضهم وتذليلهم بطلا وأيم الله.

ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبيل والفضل لما خضعوا لإرادته ولما انقادوا لمشيئته.

وفي ظني أنه لو وضع قيصر بتاجه وصولجانه وسط هؤلاء القوم بدل هذا النبي لما استطاع قيصر أن يجبرهم على طاعته كما استطاع هذا النبي في ثوبه المرقع».

هكذا تكون العظمة؟!!

وهكذا تكون البطولة؟!!

وهكذا تكون العبقرية؟!!

وتناول هذا المفكر الإنجليزي رسالة هذا النبي وما لاقى فيها من

صعاب فكتب يقول:

كانت زوجته «خديجة» فى طليعة الذين آمنوا برسالته، لقد رأى فى إيمانها بكلمته المخلصة جميلا يفوق كل ما أسدت إليه من قبل؛ فليس أجمل على النفس من أن يجد الإنسان له شريكا فى أفكاره ومعتقداته. وهذا هو الذى دعا نوفاليس (١٢٧٢هـ - ١٨٠١م) أن يقول: ما رأيت شيئا قط يقوى العزيمة واليقين أقوى من انضمام إنسان آخر إلى فى الرأى.

لهذا ظل محمد يذكر خديجة حتى لقي ربه، لقد سألته عائشة زوجته الصغيرة البارعة الجمال المتقدة الذكاء ذات يوم قائلة: ألسنت الآن أفضل من خديجة؟.. لقد كانت أرملة مسنة ذهب جمالها وولى.. أراك تحبني أكثر مما كنت تحبها.

فأجابها النبى:

كلا والله.. لست أفضل منها.. وكيف يكون ذلك وهى التى آمنت بى والكل كافر ومنكر؟!

واستمر النبى يذكر رسالته لهذا ولذاك، فما كان يلقى غير الجمود والسخرية، حتى إنه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلا، وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع، وبعد هذه السنين الثلاث أدب مآدبة لأربعين من أهله ثم قام بينهم خطيبا فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها فى سائر أنحاء الكون. وأنها المسألة الكبرى.. فأبهم يمد إليه يده ويأخذ بنصره؟، وبينما القوم صامتون فى حيرة ودهشة وثب «على» وكان غلاما فى السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة، فصاح فى قوة أنه ذاك النصير والظهير. ولايحتمل أن القوم كانوا منا بذين

محمدًا ومعاديه وكلهم قرابته ، وفيهم أبوطالب عم محمد وأبو علي ، ولكن رؤية رجل كهل يعينه غلام في السادسة عشرة يقومان في وجه العالم بأجمعه ، كانت مما يدعو إلى العجب فانقض القوم ضاحكين ، ولكن الأمر لم يكن بالمضحك ، بل كان غاية في الجد والخطرا ، أما «علي» فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه فإنه فتى شريف النفس ، يفيض قلبه رحمة وبرًا ، وكان أشجع من أسد ، ولكن كانت شجاعته ممزوجة برقة ووداعة وحنان .

واستمر النبي يؤدي الرسالة إلى كل من أصغى إليه وينشر مذهبه بين الحجيج مدة إقامتهم بمكة ويستميل الأتباع هنا وهناك ، وهو يلقي أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة ومناصبة بالعداوة ومجاهرة وشرًا باديًا وكامنًا ، وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه ، ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة إلى الحبشة فوقع خبر ذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه فنصبوا الأشرار وبثوا الحبائل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمدًا بأيديهم ، وكانت خديجة قد توفيت وتوفى أبو طالب ، وتعلمون أصلحكم الله أن محمدًا ليس بحاجة إلى أن يرثي له ولحاله النكراء ومقامه الضنك وموقفه الحرج ، ولكن اعرفوا معنى أن حاله وقتئذ كان أشد حالات الضنك والبلاء ، لقد كان يختبئ في الكهوف ويفر متنكرًا من مكان إلى مكان ، لا مأوى له ولا ناصر ولا معين ، تتهدده المخاوف وتتوعده المهالك .

وفي العام الثالث عشر من رسالته وجد أعداءه متألبين عليه جميعًا ؛ وكانوا أربعين رجلًا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه ، وعندئذ وجد المقام بمكة مستحيلًا فهاجر إلى يثرب حيث التف به الأنصار ، والبلدة تسمى

الآن المدينة. أى مدينة النبى وهى من مكة على بعد مائتى ميل، تقوم وسط صخور وقفار، ومن هذه الهجرة يبتدئ التاريخ فى المشرق والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر هذا النبى. وبهذا بدأ النبى فى مرحلة جديدة من مراحل رسالته.

وتناول «توماس كارليل» الدين الإسلامى ببعض البحث والتحليل فكتب يقول: لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيا به أمة هامة. وما كانت هذه الأمة إلا فئة جواله فى الصحراء خاملة فقيرة تجوب الفلوات ومنذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من عنده ورسالة من قبله، فإذا بالخمبول قد استحال شهرة، والغموض نباهة، والضعف قوة، وإذا بالضوء الخافت قد أضحى نورا وهاجا يملأ الأنحاء ويعم الأرجاء. وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى امتدت دولة العرب إلى الهند وإلى بلاد الأندلس، وظلت هذه الدولة تشرق حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الحق والمروءة والعدل والشهامة والنبيل.

وفى موضع آخر كتب يقول: «وفى الإسلام صفة أراها أشرف الصفات وأعظمها وهى المساواة بين الناس، وهذا يدل على صدق النظر و صواب الرأى».

والإسلام لم يقنع بجعل الصدقة سنة محبوبة، بل جعلها فرضا على كل مسلم. وجعلها قاعدة من قواعد الإسلام، وقدرها بنسبة من الثروة، تعطى للفقراء والمساكين والمنكوبين.

جميل والله كل هذا!!

جميل والله أن ينبعث صوت الرحمة والإحياء والإنسانية من فؤاد هذا النبي الكريم ابن القفار والصحراء.

قد نتساءل لماذا اختار «توماس كارليل» هاتين الميزتين من بين مزايا كثيرة؟!

لقد رأى في هاتين الميزتين مظهرين مختلفين من مظاهر إصلاح المجتمعات وتقويمها.

لقد رأى في الصدقات مظهرا من مظاهر التكافل والتضامن الاجتماعي بين طبقات الشعب الواحد.

وفي معرض الدفاع عن الدين الإسلامي كتب يقول:

وأى دليل يشهد ببراءة الإسلام من الميل إلى الملذات من شهر رمضان الذي تلجم فيه الشهوات وتزجر فيه النفوس.

إن أمجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان، وألا يجعل من لذاته أغلالا تقيده، بل يجعل منها حليا وزخارف متى شاء خلعها ومتى شاء نزعها.

كذلك أمر رمضان، حيث تلجم فيه الشهوات وتخضع. ثم استطرد في دفاعه عن الإسلام يقول: لقد مضى على هذا الدين مئتان وألف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لأكثر من سدس سكان العالم^(١)، ومازال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم، ولا أحسب أن أمة اعتصمت بدينها اعتصام المسلمين بإسلامهم، إذ

(١) يكون المسلمون اليوم نحو من ربع سكان العالم.

يوقنون به كل اليقين، ويواجهون به الدهر أبدا، وينادي حارس الليل في شوارع القاهرة أحد المارة: من السائر؟ فيجيبه السائر، «لا إله إلا الله»، إن كلمته التوحيد والتكبير لترن آناء الليل وأطراف النهار في صدور تلك الملايين من البشر، وإن الفقهاء نوى الغيرة في الله والتفانى في حبه يذهبون إلى الشعوب الوثنية بالهند والصين والمالاي فيهدمون أضرابهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام، ونعم ما يفعلون.

أما عن القرآن فكتب توماس كارليل يقول: «لقد نظر العرب إليه نظرة معجزة لما بين آياته وأذواقهم من ملائمة، ولعدم وجود ترجمة تذهب بحسنه وإبداعه.

لقد أعطاه العرب من التبجيل أكثر مما أعطاه أهل الأديان الأخرى لأديانهم وما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل، والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها، والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما، ومصدر أحكام القضاة، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به في غياهب الحياة، وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئاً على التوالي، وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الألوف من خلق الله وفي قلوبهم في كل آن ولحظة».

برنارد شو (١٨٥٦هـ - ١٩١٠م) يكرم نبي الإسلام

«إننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه، لثم النجاح فى حكمه ولقاده إلى الخير، وحل مشكلاته على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة».

برنارد شو

لا نعد برنارد شو كاتبا وفيلسوبا إنجليزيا عظيما فحسب، بل هو فى طليعة المفكرين والفلاسفة فى العالم أجمع. ومن أخص خصائص هذا الفيلسوف الكبير أنه جرىء إلى أبعد حد، وصريح إلى أبعد حدود الصراحة.. فإذا أبدى رأيا فى يوم من الأيام، فهو رأى يؤمن به كل الإيمان ويعتقد بصحته وصوابه إلى حد كبير.

وفى أثناء سياحته فى بومباى بالهند كتب رسالة أوضح فيها رأيه فى صلاحية الدين المسمى لجميع الأمم، فى كل زمان ومكان، وشاد بفضل هذا الرسول وعظمته وعبقريته قائلا:

«لقد وضعت دائما دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته العظيمة، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل زمان ومكان».

ثم استطرد يقول:

«لا مشاحة في أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال.. لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا في الغد القريب؛ وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم.. ولقد صور أكليروس القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان، إما بسبب الجهل، أو بسبب التعصب الذميمة.. ولقد كانوا في الواقع يمرنون على كراهية محمد وكراهية دينه، وكانوا يعتبرونه خصما للمسيح.. ولقد درسته باعتباره رجلا عظيما، فرأيته بعيدا عن مخاصمة المسيح بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وإنى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة للذين هو في أشد الحاجة إليهما.. ولقد أدرك في القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال كارلايل وجوت (١٧٤٩-١٨٣٢م)، وجيبون (١٧٣٧-١٧٩٤م) القيمة الذاتية لدين محمد.. وهكذا وجد تحول حسن في موقف أوروبا من الإسلام.. ولكن أوروبا في القرن الراهن تقدمت في هذا السبيل كثيرا، فبدأت تعشق عقيدة محمد.. وفي القرون القادمة قد تذهب أوروبا إلى أبعد من ذلك، فتعترف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها.. بهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي.

وفي الوقت الحاضر دخل كثير من أبناء قومي من أهل أوروبا في دين محمد، حتى ليتمكن أن يقال إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ.. هكذا وصف أكبر كاتب إنجليزي الإسلام ونبيه الكريم، وهكذا شهد له أكبر فلاسفة أوروبا.

لقد سجل برناردشو كلماته هذه بعد بحث وتفكير وروية، بعد أن عرف أن دين هذا النبي وضع لكل مشكلة اجتماعية واقتصادية الحل المناسب لها الذى يصلح لكل زمان ومكان.

لقد سجل هذا الكاتب الكبير كلماته بعد دراسة عميقة لقواعد هذا الدين وما فيه من آيات بينات.. ولولا أنه درس هذا الموضوع دراسة عميقة وافية لما قال:

لقد بدأت أوروبا الآن تتعشق الإسلام.. ولن يمضى القرن الحادى والعشرين حتى تكون أوروبا قد بدأت تستعين به فى حل مشاكلها.

لقد نظر برناردشو إلى العرب قبل الدعوة المحمدية فوجدهم فى فساد وفوضى ووحشية وهمجية وحرب وقتال دائم، يقتلون البنات وينظرون إلى النساء نظرة احتقار وسخرية.. ورآهم أشد الأمم تباها بالأنساب وتساميا بالآباء، فكانت كل قبيلة تزعم أنها الفريدة فى مفاخرها.. وقد غلوا فى هذا الاتجاه حتى جعلوا لإبلهم وخيولهم أنسابا يرفعونها بها على سائر الخيول والإبل.. فما بالك بمن بعد عنهم من القبائل والشعوب واختلف معهم فى اللغة والتقاليد، ثم نظر إليهم بعد دعوة هذا النبي الكريم، فوجدهم خلقا جديدا، لا فرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، ووجدهم فى تقدم ورقى وحضارة تمتد أطرافها فى الشرق والغرب.. ورأى كيف دانت لهم الممالك والأمصار فى سهولة ويسر.. وكيف رضيت به الشعوب على اختلاف أجناسها.. وكيف ازدهرت العلوم وانتعشت الفنون على أيديهم، ورأى كيف أضحت المرأة إنسانا محترما له ما للرجال من احترام وحقوق.

لقد درس برنارد شو أمة محمد صلوات الله عليه فوجدها قائمة على الأصول الأدبية والمبادئ الأخلاقية، لا على الأمور المعيشية والمطالب المادية كما هو الحال فى المدنية الأوربية. فرأى بذلك أول أمة فى تاريخ العالم قامت على مبادئ سامية وقواعد خلقية وأسس روحانية.

لقد رآها أمة ديمقراطية بأوسع معانى الكلمة.. رآها ديمقراطية لأنها لم تعترف بالفروق الطائفية والامتيازات الأرستقراطية، رآها أمة لا تفرق بين ذكر وأنثى وبين سيد ومولى إلا بالخير والعمل الصالح المنتج.. رآها أمة تؤمن بتكافؤ الفرص، وتفتح الباب أمام العاملين من كل بيئة وجنس ولون، لكى ينال قصب السبق كل من سمت همته وعلت كفايته.

لقد درس برنارد شو أمة هذا النبى فوجدها دستورية لأن الحكومة قيدت فيها بكتاب إلهى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وهذه أعظم صفات الأمم الدستورية.. وقد حقق هذا الكتاب كل أغراض الحكومة الدستورية فجعل الحكم شورياً، وحذف الامتيازات الفردية والطائفية والجنسية ومحا الفوارق فى الحقوق والواجبات بين مختلف الطبقات وأخضع الجميع لمبادئ واحدة لا فرق بين حاكم ومحكوم وأبيض وأسود، وذكر وأنثى.

هذه هى الأمة التى قامت على الدعوة المحمدية.

ألا يحق لبرنارد شو أن يصف هذا النبى الكريم بأنه منقذ الإنسانية؟
ألا يحق له بعد هذا كله أن يقول:

«إننى أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لثم النجاح فى حكمه ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة».

درس برناردشو الحياة الإسلامية، وأدرك أنها قائمة على التكافل والتضامن والتعاون بين الأفراد والشعوب، ورأى في ذلك سر النجاح. فالمرأة والرجل متكافلان في الحياة الدنيا من نفس واحدة بعضهما من بعض يتم كل واحد منهما الآخر وأساس الصلة بينهما المودة والرحمة، والرجال أنصاف تتلمس أنصافها الأخرى في مخادع النساء، ومن تزوج فقد عصم نصف دينه، وفي كل هذه المعاني يقول القرآن الكريم:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١)

وفي موضوع آخر:

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبْرًا ﴾ (النساء: ١٢٤)

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧)

والغنى والفقير والعامل والممول متكافلون في هذه الحياة الدنيا يشد بعضهم أزر بعض ويتعاونون على البر والتقوى للفقير حق معلوم في مال الغنى.. وفي ذلك تدعيم للمجتمع أولا والأسرة ثانيا والدولة ثالثا، وأكبر الكباثر في الإسلام أن يبيت الرجل شبعانا وجاره جائع، وأجر العامل حق مكفول.. ومن ظلمه إياه أو أخره عنه فقد أثم إثما عظيما، وتعرض لعقاب الدنيا وخزي الآخرة.. وعلى الفقير والعامل أن يصدقا وينصحا ويؤديا عملهما كاملا، فإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه. والحاكم والمحكوم متكافلان، على الحاكم العدل والمساواة والرعاية، وعلى المحكوم الطاعة والنصيحة والمعاونة..

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨)

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)

هكذا كان التكافل وحسن التعامل قوام الحياة الاجتماعية التى جاء بها الإسلام الحنيف.. فماذا فعلت المطامع والأهواء والنظم الأراضية المادية التى طلعت بها أوربا على الناس يوم أن انتهت إليها قيادة البشرية؟ بدلت نعمة الله كفرا وأحلت التنافر والتخاصم محل هذا التكافل والتعاون وفشلت فى تحقيق العدالة والإخاء والسلام على وجه الأرض. ألا يحق بعد هذا كله أن يسجل برناردشو كلمته الخالدة ويقول: «وانى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة والطمأنينة التى هو فى أشد الحاجة إليها».

وهذه الصيحة التى أطلقها برناردشو عن الإسلام ونبيه، تتفق إلى حد كبير مع خطبة المستر كاين تلى التى ألقاها فى حفل كبير جامع حيث قال:

«يمتد الدين الإسلامى الآن من مراكش إلى أنقرة، ومن زنجبار إلى الصين ويخطو فى داخل إفريقيا خطوات كبيرة وتعتنقه أمم كثيرة، وقد خطى بنفسه، وثبتت قدمه فى الكونغو التى صارت بلادا إسلامية بأجمعها وخاصة البلاد السودانية وهى أشدهن بأسا.. أما فى الهند فإن التمدن الغربى الذى كان يهدم أركان الوثنية فإنه يمهد الطريق للدين الإسلامى لا غير، فأهل الهند البالغ قدرهم ٢٥٥ مليون نسمة، منهم ٥٠

مليوناً الآن مسلمون^(١) .. وسكان إفريقيا بأجمعهم أكثر من النصف منهم مسلمون. وهذا يدل على أن الإسلام فى تزايد وانتشار.

ثم استطرد يقول: لقد أفاد الإسلام التمدن أكثر من النصرانية، ونشر راية المساواة والأخوة.. وهذه الأدلة نذكرها نقلاً عن تقارير الموظفين الإنجليز وعمما كتبه أغلب السياح عن النتائج الحسنة التى نتجت من الدين الإسلامى وظهرت آياتها منه، فإنه عندما تدين به أمة من الأمم السودانية تختفى من بينها فى الحال عبادة الأوثان واتباع الشيطان والإشراك بالعزیز الرحمن، وتحرم أكل لحم الإنسان وقتل الرجال ووأد الأطفال، وتضرب عن الكهانة، ويأخذ أهلها بأسباب الإصلاح وحب الطهارة واجتناب الخبائث والرجس والسعى نحو إحراز المعالى وشرف النفس، ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية، وشرب الخمر من الأمور البغيضة، ولعب الميسر والأزلام محرمة، والرقص القبيح ومخالطة النساء اختلاطاً دون تمييز بغيضا، ويحسبون عفة المرأة من الفضائل ويتمسكون بحسن السمائل.

أما الغلو فى الحرية والتهتك وراء الشهوات البهيمية فلا تجيزه الشريعة الإسلامية.. والدين الإسلامى هو الدين الذى يعمم النظام بين الورى ويقمع النفس عن الهوى، ويحرم إراقة الدماء والقسوة فى معاملة الحيوان والأرقاء، ويوصى بالإنسانية ويحض على الخيرات والأخوة، يقول بالاعتدال فى تعدد الزوجات وكبح جماح الشهوات».

(١) يبلغ تعداد المسلمين اليوم- فى الهند- نحو ١٨٠ مليوناً- وهم ١٥٪ من سكان الهند وذلك غير سكان باكستان وبنجلاديش ولقد كانت موحدة جميعها فى عصر برناردشو

نبى الإسلام كما يصوره بوسورث سميث

تناول بوسورث سميث (١٧٨٤ - ١٨٨٤م) فى كتاب له بعنوان «محمد والدين المحمدى».. حياة محمد بالبحث والتحليل فقال:

«وكما كان محمد رئيسا للدولة كان رئيسا للدين أيضا. أى إنه كان قيصرًا وبابا فى شخص واحد.. ولكنه كان بابا من غير مزاعم البابا، وقيصرًا دون أن يكون له جيوش قيصر.

كان محمد فى وقت واحد مؤسسًا لأمة، ومقيما لإمبراطورية، وبانيا لدين.. وهو إن كان أميا فقد أتى بكتاب يحوى أدبا وقانونا وأخلاقا عامة، وكتبا مقدسة فى كتاب واحد، وهو كتاب يقده إلى يومنا هذا سدس مجموع النوع البشرى^(١)، لأنه معجزة فى دقة الأسلوب وسمو الحكمة وجلال الحق.

ثم استطرد بوسورث سميث يقول:

«إن أعجب العجائب فى حياة محمد أنه لم يدع قط القدرة على إتيان المعجزات. فأيا شىء قال إنه يستطيع أن يفعله رآه أتباعه وهو يفعله.. ولم ينسب أحد منهم إليه معجزة من المعجزات، بل إن محمدا نفسه حرص دائما على أن ينكر قدرته على إتيانها.. أى دليل له مثل هذه القوة على الإخلاص يمكن أن يسوقه إنسان! لقد ظل محمد إلى آخر حياته وليس له لقب يعتز به إلا إنه نبى مرسل من عند الله.. دون أن يكون

(١) يبلغ تعداد المسلمين اليوم قرابة ربع سكان العالم.

له جيش قائم ولا دخل ثابت.. وإذا كان لأى إنسان أن يدعى الحق فى تلقى الوحي من الله فإنه محمد، وإنه لحدث فريد فى التاريخ أن يؤسس محمد شعبا وإمبراطورية ودينا».

وفى موضع آخر كتب يقول:

«لقد كان محمد موفقا كل التوفيق، ولم يحدثنا التاريخ عن مثله.. لقد جمع بين زعامات ثلاث هى زعامة الشعب، وزعامة الدين، وزعامة الحكم والسلطان.. ومع أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادة، يقدرسه أكثر من سدس سكان العالم».

أليس فى هذا كله معجزة؟! إنها معجزة المعجزات!

نبى الإسلام كما يراه السر وليم ميور

أما السير وليم ميور **william muir** فتناول حياة هذا النبى بالبحث والتحليل من جوانب مختلفة ، فعن فترة شبابه كتب يقول : « بجانب صفاء ذهنه ورقة طبعه عاش جانبا كبيرا من شبابه فى أعماق نفسه .. لقد شغلت تأملاته وهواجسه أوقات الفراغ التى كان يقضيها الآخرون فى خلاعة وألعاب شرسة .. أما أخلاقه الطاهرة وتصرفاته المشرفة فمنحته تقدير مواطنيه فلقبوه بالأمين» .

وقد تناول جانبا آخر من حياة هذا الرسول فقال : « ومن صفاته الجديرة بالتنويه الرقة والاحترام اللذان كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأنًا ، فالتواضع والرفقة والأناة وإنكار الذات والسماحة والسخاء تغلغلت فى نفسه فأحبه كل من حوله .

وكان يكره أن يقول لا ، فإذا لم يتمكن من أن يجيب الطالب لسؤاله فضل السكوت على الجواب .. وقد قالت عنه عائشة : إنه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان إذا أساءه شىء تبيناه فى أسارير وجهه أكثر من كلامه .. ولم يمس أحدا بالضرر إلا فى سبيل الله .. ويؤثر عنه أنه كان لا يمتنع عن إجابة دعوة إلى بيت مهما كان رب البيت ، وإذا جلس إلى صاحبه لم يرفع نحوه ركبتيه تشامخا منه وكبرا .. وكانت له تلك الخلة النادرة التى يجعل بها كل فرد من صحابته يظن أنه المفضل المختار» .

أما علاقة النبى بأصحابه فتناولها السير وليم ميور قائلا : « كان

محمد صديقا وفيما، أحب أبا بكر محبة الشقيق الودود، وعليها محبة الأب الرؤوف.. ومما يذكر أن زيدا الذي كان عبد خديجة كان متعلقا بالنبي تعلقا شديدا لعطفه عليه، حتى إنه فضل البقاء بمكة على أن يعود لبلده مع أبيه وتعلق بأهداب النبي قائلا: لست تاركك، فقد كنت لي أبا بارا عطوفا. وقد بقيت صداقته بالنبي إلى ما بعد موت زيد، إذ عامل أسامة ابنه معاملة فيها إكرام لأبيه، كذلك كانت علاقته بعثمان وعمر مشبعة بروح المودة والولاء. وكان محمد عليه الصلاة والسلام عادلا مقتصدا، فلم يكن يعزه الرفق بأعدائه إذا ما دانوا له بالطاعة، وقد كان دفاع مكة العتيد الطويل المدى ضد دعوته يحمل على البطش بهم بعد فتحها، ولكنه أصدر عفوا عاما ملقيا ذكريات الماضي بما فيها من سخرية وإهانة واضطهاد في زوايا النسيان. وعامل أعداءه بالإكرام والسخاء، ولم تكن السماحة التي أبداهها لأهل مكة الخارجين عليه بأقل من ذلك ظهورا، وهم الذين ناصبوه العداء سنين طوالا، وامتنعوا عن الدخول في طاعته».

وكتب المسترلين بول (١٨٥١-١٨٧٦م) رسالة بعنوان محمد ﷺ دافع فيها عن هذا النبي الكريم دفاعا صادقا محمودا، فجاء دفاعه صورة ناطقة بعظمة هذا الرسول وعبقريته. وفي رسالته هذه كتب يقول: إن كثيرا من كتاب التراجم والسير الأوربيين الذين تناولوا الكلام عن سيرة محمد، لم يتعففوا عن أن يشوهوا هذه السيرة، بما أدخلوه عليها من افتراءات وادعاءات كاتهامهم له بالقسوة وارتكاب الموبقات والانهماك في الشهوات.

أما إنه كان متصفا بالقسوة فتهمة غير جديرة بالاعتبار. ذلك إننا إذا رجعنا إلى التاريخ وحكمناه في هذه المسألة لتبين لنا أن القسوة لم تكن قط من أخلاق محمد بدليل معاملته للأسرى بعد موقعة بدر وتسامحه مع أعدائه وصبره على أذاهم وعطفه على الأطفال المرضى وحقنه للدماء وعفوه عن أولئك الذين قضوا في محاربتة ثمانية عشر عاما أظهروا له فيها كل صنوف العداة وأذاقوه في خلالها كل أنواع الجور والظلم والاضطهاد. لقد لبث المسلمون في مكة ثلاثة عشر عاما ذاقوا في خلالها كثيرا من المضايقة والاضطهاد حتى اضطر النبي وأصحابه في النهاية إلى الهجرة للمدينة التي تقع على مسافة ٢٥٠ ميلا من مكة، ولكن الكفار لم يتركوهم بل تعقبوهم إليها فوقعت بين الفريقين عدة وقائع كان موقف محمد وأصحابه فيها موقف الدفاع لا موقف المغير. وأشهر هذه الوقائع غزوة «بدر» التي وقعت على مسافة ٢٢٠ ميلا من مكة و٣٠ ميلا من المدينة، وغزوة «أحد» التي وقعت على بعد اثني عشر ميلا من المدينة أيضا. والثالثة وهي التي حاصر فيها الأعداء المدينة ليفتكوها بالرسول وأصحابه.

وظلت رحي الحرب دائرة بين الرسول وأصحابه من جانب وبين كفار قريش من جانب آخر حتى انتصر الرسول ودخل مكة فاتحا ظافرا في موقعة لم تسفك فيها قطرة واحدة من الدماء، أفلا يعتبر هذا كله دليلا على أن محمدا لم يكن متصفا بالقسوة ولا متعطشا للدماء كما يقولون، بل كان يعمل دائما على حقنها جهد المستطاع؟!!

ولقد نال محمد تقدير العالم أجمع وأعدائه بنوع خاص، عندما ضرب

للناس مثلاً في مكارم الأخلاق وأطلق سراح عشرة آلاف أسير كانوا في يوم من الأيام يعملون على قتله والفتك به وإيراده هو وأصحابه موارد الهلاك. ولما استتب له الأمر وخضعت شبه جزيرة العرب له من أقصاها إلى أقصاها. وجاء نصارى نجران اليمانيون بقيادة البطريق لم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الإسلام؛ وأمنهم على أموالهم وأرواحهم وأمر بأن لا يتعرض لهم أحد في معتقداتهم ولا طقوسهم الدينية وأن تبقى كنائسهم ومعابدهم كما هي يؤدون فيها شعائر دينهم كما كانوا يفعلون من قبل، بل أكثر من ذلك لم يفرض عليهم أى ضريبة أو جزية، فلما أن توفي الرسول وتولى بعده خلفاؤه الراشدون أبو بكر فعمر فعثمان فعلى، لم يحاول أحدهم قط أن ينقض عهد الرسول مع من أمنهم على أنفسهم، بل أحسنوا معاملتهم أيما إحسان.

كل هذا يكشف لنا عن ناحية من نواحي الرسول وما اتصف به من الصبر واحتمال المكاره والعفو عند المقدرة، ويبرهن لنا على أن دعوته كانت خالصة صادقة بقوله:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الفرنسى (لامرتين) شاعر فرنسا الكبير (١٧٩٠-١٨٦٩م)

لامرتين نابغة من شعراء فرنسا بدأ اسمه يلمع فى عام ١٨٢٠م وفجأة قفز إلى مصاف فحول الشعراء، ثم انتخب فى المجمع العلمى الفرنسى. وبعدهما تجول فى الشرق عين نائبا فى مجلس النواب فكانت له فيه جولات خطابية موفقة.

ولما أسست الجمهورية الثانية كان عضوا فى الهيئة الحاكمة المؤقتة ووزيرا للخارجية.

أما مؤلفاته و دواوينه فهى عديدة نذكر منها التأملات الجديدة.. موت سقراط.. رحلة الشرق.. الانسجام الشعرى والدينى.. جوسلين.

درس لامرتين حياة نبينا الكريم دراسة وافية، وأدرك ما فيها من عظمة وخلود، وهذا هو الدافع إلى أن يسجل ويقول:

«أترون محمدا كان أخ خداع وكذب.. كلا.. لم يكن خادعا ولا كاذبا بعد ما عرفنا تاريخه ودرسنا حياته، فالكذب والخداع والتدليس صفات تتولد من نفاق العقيدة وليس للنفاق قوة العقيدة وليس للكذب قوة الصدق».

وتناول حياته بالتحليل قائلا:

«إن حياة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهاده، ووثبته على

خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته، وشهامته وجرأته وبأسه وثباته ثلاثة عشر عاما يدعو دعوته في وسط أعدائه، وتقبله سخرية الساخرين وهزأه بهزء الهازئين وحميته في نشر رسالته، وتوافره على السعى في إظهار دعوته، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالفوز ورباطة جأشه في الهزائم، وتطلعه إلى إعلان كلمة الله وتأسيس العقيدة الإسلامية، ونجاح دينه بعد موته. كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمّر خداعا أو يعيش على باطل. وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزدوجا، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة. الأولى تدل على من هو الله، والثانية تنفى ما ألصقه الوثنيون به. الأولى حطمت آلهة كاذبة، والأخرى فتحت طريقا إلى الفكر والتأمل».

وفى موضع آخر يقول:

«لقد كان محمد فيلسوفا وخطيبا ومشرعا وقائدا وفتح فكر وناشر عقائد تتفق مع الذهن، ومنشئ عشرين دولة فى الأرض، وفتح دولة فى السماء من الناحية الروحية. أى رجل قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه؟»
ولو كان مقياس العظمة هو إصلاح شعب متدهور، فمن ذا يتناول إلى مكان محمد؟!!

لقد سما بأمة متدهورة ورفعها إلى قمة المجد، وجعلها مشعلا للمدينة وموردا للعلم والعرفان.

ولو كان مقياس العظمة فى توحيد البشرية المفككة الأوصال فمن أجدر بهذه العظمة من محمد الذى جمع شمل العرب وجعلهم أمة

عظيمة وإمبراطورية شاسعة؟.

ولو كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء على الأرض فمن ذا الذى ينافس محمدا وقد محا مظاهر الوثنية ليقيم عبادة الخالق وحده؟. ولو قسنا العظمة بالنصر الحربى والنفوذ والسلطان فمن يدانيه فى هذا المضمار؟! لقد كان يتيما لا حول له ولا قوة، فأصبح ملكا عظيما ومؤسسا لإمبراطورية دامت ثلاثة عشر قرنا من الزمان.

ولو كان مقياس العظمة هو الأثر الذى يخلده فى النفوس على مر الأجيال فهذا هو محمد يمجده أربعمائة مليون^(١) من الناس فى مختلف البقاع، مع تباين أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم.

(١) تعداد المسلمين اليوم مليار وسبعمائة مليون.

نبي الإسلام كما يراه المستشرق الفرنسي إميل درمنغم (١٨٩٢-١٩٧١)

كتب المستشرق الفرنسي إميل درمنغم (١٨٩٢-١٩٧١م) كتاباً عن حياة محمد في شتى مراحلها نقطف منه تلك الفقرات التي جاءت بعنوان «رسول الله»: حيث قال:

«تاريخ البشرية ما هو إلا سلسلة من الإحياء والإلهام، إذ يسمع البشر بين وقت وآخر صيحة مدوية، وإذا برجل يسير في طريق الحق غير متوان، عاملاً على أن يوقظ الآخرين من نومهم العميق، هكذا يقوم خلاص البشر على سلسلة من الأفعال الحرة الطليقة.

وهكذا نهض محمد ﷺ يدعو قومه إلى دين الواحد الأحد.. وهكذا نهض لينبه آسيا وإفريقيا، وليجدد بلاد فارس الناعسة وليحث نصرانية الشرق التي أفسدتها التأمّلات الفاترة.

وشأن الأنبياء في العالم كشأن قوى الطبيعة الهائلة النافعة، كشأن الشمس والمطر، كشأن عواصف الشتاء التي تهز الأرض وتثيرها لتتزين ببساط أخضر في بضعة أيام. وأحسن شهادة لهؤلاء الأنبياء ما يورثونه من راحة العقول وطمأنينة القلوب وشد العزائم والصبر على الشدائد، مع شفاء الأخلاق المريضة الواهنة.

جاء نبي الإسلام يدعو العلماء ليفقهوا ما يقولون، ويقوم ما يتنيه فيه الحكماء من الطرق المعوجة؛ فالناس حين يستمعون لكلامه الموحى إليه

به يعود إليهم سابق اتصالهم بالسر المحيط بهم، مهتدين إلى مبدأ حتى لا يجدون مثله في نوائج الفلاسفة وأقطاب السياسة والاجتماع. ويكفي أن نشير إلى أن نبي الإسلام ظهر في وقت من أشد أوقات التاريخ ظلاماً. في وقت كانت فيه الحضارات مضطربة متداعية.

وبين محمد ومن تقدمه من أنبياء بني إسرائيل شبه قوى فكان وهو بمكة، كأشعياء في إسرائيل. وكان وهو حاكم بالمدينة كيشوع في كنعان. والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة، فأسلوبه المعجز وقوة إيحائه التي لا تزال لغزاً إلى يومنا هذا، يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين. وكان محمد يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله.

وكان هذا التحدي أقوى دليل على صدق رسالته. وهذا لا يعنى الإشارة إلى قيمة أدبية خاصة في القرآن، مادام محمد كارها للشعراء محترزا من أن يكون أحدهم، وما دام هناك فرق بين وحى الله ونفث الجن، ولا ريب في أن كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياته الخاصة تأتيه بما يهز الروح بأسرها من المعجزة العقلية.

ولا يستطيع أحد أن يشك في إخلاص محمد، فحياة محمد مهما كانت وجهة النظر فيها، شاهدة على اعتقاده صدق الرسالة التي حمل أمانتها الثقيلة ببطولة، وأن قوة إبداعه وعبقريته الواسعة وذكاءه العظيم وبصره النافذ. وقدرته على ضبط نفسه وعزمه المكين، وحذره وحسن تدبيره وطراز عيشه مما يمنع ذلك النبي؛ ذلك الموحى إليه الموهوب من أن يكون مبتلى بالصرع.

ولم يدر في خلد محمد ثانية أن يجعل كلامه ملائماً لذهنية معاصريه حتى يسهل إقناعهم واجتذابهم إليه. فإذا كان محمد قد استمال الناس إليه فلم يكن ذلك بما هو هين سهل، بل بعرضه عليهم رسالته الساطعة القاطعة الحادة كالسيف، المنفصلة عن نظراته الشخصية.

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الأمريكى عظمة الرسول كما يراها واشنطن أرفنج^(١)

لقد تناول واشنطن أرفنج حياة النبى فى مختلف مظاهرها ودرس عبقريته فى شتى صورها.

وكان طبيعياً أن يتحدث عن مدى تعلق هذا النبى برسالته وإخلاصه لدعوته. وفى هذا الصدد كتب يقول:

«تعتمد حياة هذا النبى على الإخلاص، ولم يكن هناك ما يدفعه إلى خوض هذه المصاعب والعقبات التى صادفته عند إعلان دعوته. لو لم يكن الإيمان الخالص لرب العالمين يملأ فراغ عقله وقلبه.. لقد كان قبل دعوته أميناً محبوباً منتمياً إلى أشرف قبائل العرب، وكانت زوجته خديجة على ثراء عريض، فاجتمع لديه قبل دعوته كرم المحتد والنسب ووفرة المال وطيب السمعة، ومع ذلك أعلن دعوته بالرغم مما كان يحيطها من متاعب واضطهادات. وهو لا يرجو من ورائها إلا إعلاء كلمة ربه. ومن مظاهر عظمة الرسول التى أشار إليها واشنطن أرفنج تسامحه مع خصومه ومعارضيه بعد فتح مكة، وفى هذا الصدد كتب يقول:

«لقد وقف أبو سفيان- الذى لم يترك فرصة واحدة تمر لإيذاء النبى

(١) واشنطن أرفنج أديب أمريكى ولد فى نيويورك فى عام ١٧٨٣م، عشق الأدب والكتابة وله فيها جولات، وطاف بأوروبا فى عدة رحلات ومات فى أمريكا فى ٢٨ نوفمبر ١٨٥٩م وفى طليعة مؤلفاته كتابه حياة محمد.

وأتباعه إلا انتهزها- أمام النبي بعد فتح مكة فعفا عنه. فما كان من أبي سفيان إلا أن عاد إلى قومه مناديا قائلا:

يامعشر قريش من دخل المسجد الحرام فهو آمن؛ ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.. ومن دخل داره فهو آمن.

أما عكرمة بن أبي جهل الذى ورث العداوة عن أبيه ففر عند دخول النبي مكة، تاركا زوجته الصغيرة الجميلة تتقدم إلى النبي وتركع عند قدميه طالبة العفو عن زوجها، فتقدم نحوها النبي وأخذ بيدها، معلنا عن عفوهِ عن زوجها، فأسرعت هذه الزوجة الشابة إلى الشاطئ لتخبر زوجها بهذا العفو قبل أن يرحل من البلاد. ولما علم عكرمة بتسامح النبي وعفوهِ عاد هو وزوجته معلنا إسلامه. وعندما وقفت نساء قريش أمام النبي بعد فتح مكة رأى بينهن هند زوجة أبي سفيان، تلك الزوجة التى لاكت كبد حمزة بعد قتله وقرضته بأسنانها. وظل النبي ﷺ شاخصا إليها فترة طويلة، فشعرت بالندم والخجل، وأسرعت نحو راکعة تحت أقدامه طالبة الصفح والغفران قائلة:

أنا زوجة أبي سفيان أطلب الصفح والغفران. فعفا عنها النبي بالرغم مما أبدته من قسوة وعنف، وصفح النبي أيضا عن صفح ابنته وهى فى طريقها من مكة إلى المدينة صفقة كانت سببا فى القضاء عليها.

فهل وجدنا فى تاريخ العالم كله تسامحا كالذى رأيناه من هذا الرسول الكريم؟.

لقد كان هذا التسامح سلاحا فعالا من أسلحة المسلمين فقد أثرت سماحة النبي وتسامحه فى نفوس العرب فلانت قلوبهم ورقت نفوسهم، فأقبلوا نحوه فى نفوس آمنة وقلوب واعية».

وتناول واشنطن أرفنج بعد ذلك بعوثة سياسية، ورسله إلى القياصرة والملوك فكتب يقول: «أراد النبي أن ينشر دينه في نطاق واسع ففكر في الوسائل السياسية والدبلوماسية، فأرسل رسله إلى القياصرة والملوك والأمراء، داعياً إياهم إلى احتضان دينه ونشره، ولذلك لم يلجأ إلى السيف إلا بعد أن استنفدت الوسائل السلمية الأخرى.

لقد أرسل رسله إلى كسرى ملك الفرس، وإلى قيصر ملك الروم وإلى المقوقس حاكم مصر، كما أرسلها إلى النجاشي ملك الحبشة.

وعندما ذهب رسوله إلى كسرى قدم إليه رسالة نبيه؛ فأعطاه كسرى لأحد رجاله الذي بدأ يقرأ ويقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله... ورسول الله.. إلى كسرى ملك الفرس.

فصاح كسرى غاضباً:

ماذا يقول؟!!

هل هناك من يجزؤ على أن يكتب اسمه قبل اسم كسرى؟! وأمسك بالخطاب في غضب وحقده ومزقه قبل أن يعرف محتوياته. ولم يكتف كسرى بذلك بل أصدر أوامره إلى حاكم اليمن بأن يلقي القبض على نبي الإسلام، فأرسل هذا الحاكم رجلين إلى المدينة لهذا الغرض، فلما وصلا إلى المدينة أبلغا النبي رسالة ملكهم.

فقال لهم النبي ﷺ:

هل لكما ملك؟

فبدت الحيرة على وجوههم.

ولما عادا إلى دارهما عرفا أن كسرى قضى نحبه مقتولا بيد ولده فى نفس اللحظة التى كانا يحادثان فيها النبى. أما رسول النبى إلى قيصر الروم فكان أوفر حظا، إذ قابله قيصر مقابلة حسنة، وحمله عند عودته بالهدايا وإن كان لم يرد على الرسالة ردا حاسما.

وفى مصر استقبل المقوقس مبعوث النبى أحسن استقبال وأكرم وفادته وحمله أيضا بالهدايا عند عودته وكان من بين هذه الهدايا بغلة لركوب النبى وجاريتان. فوقع النبى فى حيرة من أمر قبول الجاريتين كمحظيات فتزوج إحداهما وهى ماريا القبطية وتزوج أحد أتباعه الجارية الأخرى، وكان لذلك أثر حسن عند أقباط مصر. أما النجاشى ملك الحبشة فقد قبل الإسلام بمجرد أن تلقى دعوة النبى.

هذه الرسل والمبعوث تدل دلالة واضحة على أن النبى لم يلجأ إلى القتال إلا بعد أن استنفذ جميع الأساليب السياسية والدبلوماسية. وفى هذا حكمة ومحبة للسلام، ويحث واشنطن أرفنج انتصاراته الحربية وتوسعه السياسى وأثرها فى تغير نفسيته وخلقه فكتب فى هذا الصدر يقول:

«لم توقظ انتصاراته الحربية والسياسية فيه الزهو والفخار. ولم تثر فى نفسه الأنانية والرغبات الشخصية الجامحة. بل بقى النبى بالرغم من هذا كله زاهدا متواضعا كما كان فى بداية حياته.

لقد كانت الثروة والجاه بين يديه ورهن إشارته ولكن لم ينفقها إلا من أجل الدين وإعلاء كلمة الله.

لم يكن فى بيت النبى عند موته دينار ولا درهم. ولا عبد ولا جارية. لقد وضع الله كنوز الأرض كلها بين يديه ولكنه كان زاهدا فيها كلها».

ولكى يصور واشنطن أرفنج موقف الرسول عند موت ابنه كتب يقول:
 «وقد بدا خضوعه لإرادة الله فى وضوح تام عندما كان واقفا بجانب
 ابنه إبراهيم وهو على فراش الموت.. وكان عزأؤه الوحيد أنه سيلقى ابنه
 فى الفردوس.

وعندما تبعه إلى قبره كان يدعو إلى دينه ووحداية ربه ورسالة نبوته
 وحتى فى ساعات موته كان يردد صلاته ويتحدث عن دعوته.
 وكانت الكلمات الأخيرة التى اضطربت على شفقتيه رغبة فى أن
 يدخل ملكوت الله مع الأنبياء السابقين».

نبي الإسلام كما يصوره ر.ف. بودلي^(١)

عرف محمد بالأمانة والجد. فما تخطى الخامسة والعشرين حتى كان من أكبر تجار القوافل وأنشطهم في غرب بلاد العرب، فعهد إليه كثيرون غير عمه بأمر تجارتهم. وقد اختلف محمد عن زملائه من التجار، فبعد انقضاء يومه يقضى وقته في السوق، أو في دار صديق حيث يجتمع رجال الفنون ورواة القصص والشعراء. ولطالما أنصت هناك إلى الفلاسفة ورجال الأديان يتحدثون في أمور دينهم وعقائدهم. وتعاقبت رحلاته فألم خلالها بتاريخ تلك البقاع من آسيا وتقاليدها، وتهيأ له ما تهيأ لأمثاله ممن يقضون أعمارهم في الرحلات من الحكمة الدنيوية. وإن الدارس لقصة محمد لتبهره حكمته الساطعة، وليرى محمداً شيئاً مميّزاً لا يمت لعصره بصلة، وأنه ليعجب أحياناً من اعتدال أحكامه التي تعالج الأمور العامة فقد كانت أفكاره سابقة لأفكار معاصريه.

لقد كان محمد ﷺ على نقيض من سبقه من الأنبياء، فإنه لم يكتف بالمسائل الإلهية، بل تكشفت له الدنيا ومشكلاتها، فلم يغفل الناحية العملية الدنيوية في دينه، فوفق بين دنيا الناس ودينهم، وبذلك تفادى أخطاء من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملي. لقد شبه الحياة بقافلة مسافرة يرهاها إله، وأن الجنة نهاية المطاف.

(١) ر.ف. بودلي (١٥٤٥-١٦١٣م) كولونيل أمريكي اختلط بالعرب ودرس حياتهم الخاصة، فأغراه ذلك إلى دراسة حياة نبيهم فدرسها دراسة واسعة شجعتة على أن يكتب كتاباً عن حياة هذا الرسول ومظاهر عظمتة.

وظلت أخلاقه ثابتة لا تتبدل، أيا كان العمل الذي يعمله، سواء أكان يرعى غنمه في سكون البادية، أم يبيع عظوره أو أنماطه في دمشق. ولم تتبدل أمانته، ولم يتغير صدقه، بل بقيت فضائله ثابتة على الأيام، حتى لقب «بالأمين» ولم تفتنه النساء قط، ولم تفتنه الشهوات أيضا، وبقيت غرائزه الجنسية مهذبة. وكان حاضر البديهة، عذب الحديث، ميالا إلى معاشره الناس، معتنيا دائما بملابسه وهندامه. فكان يلبس للخيام لبسا وللطريق لبسا، ويعتنى بلباسه غاية العناية إذا ما كان في الدار. وكان يهتم بعمامته وكانت ملابسه نظيفة أبدا، وكان يفضل البياض وإن كان قد لبس الألوان الزاهية في أيامه الأخيرة.

ومما كان محمد ثرثارا، وإن كان صادق الترحاب بمن يقبل عليه، وكان على سليقته العربية لا يتكلم إلا إذا كان هناك ما يصلح للحديث، وقد أعلن أن من الإيمان الإعراض عن اللغو.

وكان متوسط الحال، وقد قال بعضهم فيه يوما: «إنه أخفر من عذراء في خدرها». ولم يثبت في تاريخه حتى اليوم أنه أتى أمرا خارقا، وأن الحادث التالي الذي يذكر على سبيل التدليل على فطنته، ليبرهن على أنه كان يتفوق على أقرانه برجاحة عقله، فقد أثرت الأمطار في الكعبة فتصدعت جدرانها، وأصبح شد بنيانها أمرا ضروريا، وأقبلت قريش على هذا العمل بعد إحجام.

ولما آن وضع الحجر المقدس في مكانه زاد الخصام واشتد الأمر واستفحل الخطب وكادت تندلع نار الحرب، قال أحدهم: اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل باب الصفا. فلما رأوا محمدا أول من دخل

هللوا غبطة ووضعوا الأمر بين يديه. ففكر قليلا ثم خلع عباءته ونشرها وأخذ الحجر الأسود ووضعها فيها ثم قال ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب. فحملوه جميعا إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء، ثم تناوله ووضعها في موضعه قبل أن ينشب خلاف آخر.

أما زهد النبي وأتباعه فقد صورته المؤلف بفقرته التالية:

«ولقد أوضح محمد منذ اللحظة الأولى أن الإسلام يقوم على البساطة، ولقد اعتنق أصحابه تلك المبادئ حتى بعد موته. مما يروى أن خالدًا قائد جيوش المسلمين في الشام أيام خلافة عمر اجتمع بقائد الجيش الروماني تحت خيمة كبيرة وكان الرومان يرتدون الكسى المزخرفة البراقة ويحملون سيوفا مرصعة بالجواهر المتلألئة. أما خالد وأصحابه فكانوا يرتدون رداء الأعراب المقاتلين، دروعا بسيطة، وسيوفهم إلى جانبهم لا يبريق فيها ولا زخرف. وألقى المسلمون التحية لدى دخولهم وجلسوا أرضا. فسألهم القائد الروماني: لم لا يجلسون على المقاعد. فأمن خالد فيه النظر ثم قال: «لقد خلقنا من الأرض، منها ننبت وإليها نعود، الله خالق الأرض، وما يخلقه الله أثمن من طنائفكم الحريرية». وفي اليوم التالي هزم خالد وبدوه الزهاد جيش الرومان هزيمة لم يعرف لها مثيل من قبل، واستولوا على القدس.

حتى النبي عندما حقق انتصاره الأكبر، ودخل مكة وحطم أصنام الكعبة، وأتم فيها أهم جزء من رسالته بتطهير بيت الله من الأوثان، نام على قطعة من الحصر، كما كان ينام وهو أجير يقود القوافل للقرشيين ولخديجة بنت خويلد.

فله در أولئك الزهاد الذين لم يقيسوا الدنيا بما فيها من غرور.. وإنما عالجوها العلاج الذى يؤدى إلى الخير. والذين ساووا أنفسهم بأصغر صغير من أتباعهم، لم تخذعهم المناصب، ولم تغرهم أبهة السلطان. وفى المدينة وضعت صيغة الأذان لدعوة الناس إلى الصلاة، وكانت فكرة موفقة صائبة. وإن صوت المؤذن لينبعث كل يوم خمس مرات منادياً «الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمداً رسول الله..» فإذا بالرنين الحلو ينساب من فوق مآذن المساجد فى أنحاء العالم، وإنه لرنين يهز قلوب الناس ومشاعرهم أيا كانت عقيدتهم.

الرسول كسياسى ودبلوماسى

ومن الحوادث التى تناولها هذا المؤلف بالبحث والتحليل صلح الحديبية عام ٦٢٨م الذى وصفه بأنه نصر سياسى دبلوماسى لنبى الإسلام جدير بالإعجاب والتسجيل.. وفى هذا الصدد كتب بودلى يقول: «وجد النبى بعد خروجه من مكة أن الأمل فى الاتفاق مع القرشيين ضعيف، وأضعف منه أن يأخذ مكة بقوة السلاح. لهذا سعى لتوطيد سلم بين مكة وبينه بطريقة لا تجرح المسلمين.

وقد واثت محمداً فكرة بديعة هى أن يأخذ رجاله، غير مسلحين، ويشترك فى الحج السنوى إلى الكعبة وسيأمنون الغدر بهم لأنهم سيكونون فى الأشهر الحرم.

وفى فبراير سنة ٦٢٨م اجتمع خارج المدينة ألف وخمسمائة من حجاج المسلمين فى ثياب الإحرام البيض، وتحركوا إلى مكة حتى بلغوا مشارفها. وضربوا خيامهم، وتربص محمد ليرى كيف يتصرف القرشيون.

ولم يكن هؤلاء ينوون الإذعان بسهولة لهذه الجرأة فبعثوا إلى النبي
 يفاوضونه في أن يرجع هذا العام ويعود العام التالي فيحج إلى الكعبة،
 وانتهت المفاوضات بين الطرفين بعقد هذه المعاهدة في مارس سنة ٦٢٨م.
 وبمقتضى هذه المعاهدة بين محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، يتفق
 الطرفان على أن يعود محمد ورجاله فوراً إلى المدينة، ويؤذن لهم بالرجوع
 في العالم التالي للحج. وستخصص لهم ثلاثة أيام يؤدون فيها فرائضهم
 حول الكعبة، وفي هذه الفترة يخلى القرشيون مكة، ويعسكرون خارج
 أسوارها، وسيكون على الحجيج من أتباع محمد أن يكونوا غير مسلحين
 إلا بالسيوف المغمدة التي يؤذن للراجلين بحملها للدفاع عن النفس.
 وتدوم هذه المعاهدة عشرة أعوام. تجرى فيها قوافل الطرفين في أرض
 مكة والمدينة بسلام. ويعاد إلى مكة كل المكيين الذين يلجأون إلى المدينة
 بقصد الإسلام دون موافقة عائلاتهم على ذلك.

ولا شك أن هذه المعاهدة كانت أعظم نصر دبلوماسي حقيقى لمحمد،
 ففيها اعتراف به كزعيم لجماعة كبيرة من العرب يحسب لها حساب،
 ولها قوة وحقوق. وإمضاء معاهدة معه بهذا الوصف، بعد طول الطراد
 والنزال.. نصر وأى نصر!

وكان محمد يتطلع إلى أبعد من ذلك، كان يرى أن المعاهدة مقدمة لها
 ما بعدها، فإن مجرد استطاعته وضع قدمه في مكة، كفيل بأن يبقيه
 فيها أبد الأبد.

الحج عام ٦٢٩م

وفي العام التالي قصد النبي على رأس الحجاج إلى مكة. فلما أصبحوا
 على مرمى النظر، خرج المكيون من منازلهم، وتركوا مكة وعسكروا

خارجها، ودخلها المسلمون. فلما لمحووا الكعبة، انبعثت من حناجرهم التكبيرات «لبيك اللهم لبيك».

وبعد أن أدوا مناسك الحج^(١)، باتوا ليلتهم حول الكعبة. فلما أصبحوا أمر النبي بلالا أن يؤذن. فأذن قائلا: (الله أكبر.. الله أكبر) وقد كان لهذا الأذان وقع لا يبارى.. لقد سمعه أهل مكة جليا. ورأوا آهتهم جامدة كالصخر، لم تثر ولم تغضب لانتهاك حرمتها، ولم ترسل الصواعق مدرارا على رؤوس أولئك الكفرة.. ولم تفجر ينابيع الأرض أو تشقق جوفها تحت أقدامهم.

رأى القرشيون ذلك وتأثروا به، فكان أن قصد خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة إلى النبي بعد ثلاثة أشهر في المدينة وأعلنوا إليه إسلامهم.

ولم يقتصر الأمر على أهل مكة، بل لقد قصدته القبائل من كل أنحاء الجزيرة تعلن إسلامها، فما انتهى عام ٦٢٩م حتى رأى محمد أن الوقت قد حان لتصفية الموقف مع أبي سفيان.

وعندما اعتدت قبيلة من حلفاء قريش على أخرى من حلفاء محمد، كان ذلك حجة قوية لهذا النبي، للرد على نقض المعاهدة، ودخول مكة بقوة حراب المسلمين.

أحاط النبي وقواده أمر الحملة بالكتمان التام. فأغلقت كل الطرق الموصلة إلى مكة، ومنعت قبائل البدو من التحرك في الصحراء، وبذلك لم يعلم العدو شيئا عنها حتى أصبحت على أبواب مكة.

تحرك الجيش في أول يناير سنة ٦٣٠م وبلغ عشرة آلاف مقاتل كاملى العدة والسلاح، وولى الزبير قيادة المقدمة، يعاونه مائتان من الخيالة. والرسول على رأس قلب الجيش، وتولى عمر تنسيق تقدم هذا الجيش الجرار، فقاده خلال مسالك غير مطروقة، ولم يأذن بدق الطبول أو التكبير، والتقى الجيش فى الطريق بالعباس عم النبى وهو فى طريقه إلى المدينة ليعلن إسلامه، وبذا كان آخر المهاجرين.

وأخيرا حط الجيش رحاله إلى جوار مكة، وأذن عمر بإشعال النيران فاشتعلت منها ألوف ورآها أهل مكة فتولاهم الذعر والفرع، وأوفدوا أبا سفيان لتقصى حقيقة الأمر، فالتقى به العباس إلى جوار معسكر الجيش فنصحه بالمبادرة إلى التسليم، قبل أن يدمر محمد مكة.

وفى الصباح أعلن أبو سفيان بين يدى النبى إسلامه وأنه سيسلم مكة ففرح النبى.. هاهى ذى مكة تسلم إليه دون أن تراق الدماء ودون أن يقتتل الأخوة وأبناء العمومة.

وطلب محمد من أبى سفيان أن يأمر الناس بالبقاء فى منازلهم «فمن فعل فهو آمن».

وعاد أبو سفيان فأعلن ذلك للناس فدخلوا دورهم ولزموها، واستعرض محمد جيشه، وسلم ببيرق المسلمين لعلى. واحتاط من أى خيانة بأن طوق مكة أولا، ثم دخلها من جهاتها الأربع فى وقت واحد. فدخلها خالد على رأس الخيالة من الجنوب وقاد الزبير جماعات البدو على جمالهم من الشمال ومن الغرب تقدم أهل المدينة بقيادة سعد بن عبادة. أما من الناحية الشرقية فتركت للمحاربين القدماء برئاسة أبى عبيدة.

ثم دخل النبى وقادته تحيط به فرقة رماة الرماح المدرعين، بقيادة أسد الصحراء العربية على بن أبى طالب.. وتم كل ذلك بنظام بديع.. دون أى مقاومة، فيما خلا حادثة واحدة. وقعت بين طابور خالد وصفوان ابن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل. وانتهت فى دقائق بقمع التمرد.

وبدل محمد ثيابه الحربية، وطوف بالكعبة، ثم دعا أعوانه الذين صحبوه منذ البداية، فأخذوا فى تحطيم أصنام الكعبة، وهم يرددون «جاء الحق وزهق الباطل.. إن الباطن كان زهوقاً».

نبي الإسلام في مرآة الفكر الروسي

تولستوى يتحدث عن نبي الإسلام

(١٨٢٨ - ١٩١٠م)

هو الكونت ليو تولستوى ابن الجنرال تولستوى وحفيد الكونت تولستوى السياسى الروسى، نشأ جندياً ثم اشتغل بإصلاح الهيئة الاجتماعية فأخذ يكتب القصص يودعها مذهبه حتى ذاع صيته وطبق آفاق العالم.. وتصدى لقادة الأديان وصاح بهم صيحات انتقاد وسخرية حتى اضطروا إلى الحكم بالحاده.

لقد كان هذا الفيلسوف الروسى كاتباً منصفاً، فعندما رأى تحامل أهل الأديان الأخرى على الدين الإسلامى، هزته الغيرة على الحق إلى وضع عجالة عن نبي الإسلام وبعض تاريخ حياته فقال فيها: «ولد نبي الإسلام فى بلاد العرب من أبوين فقيرين وكان فى حداثة سنه راعياً، يميل إلى العزلة والانفراد فى البرارى والصحارى، متأملاً فى الله خالق الكون.

لقد عبد العرب المعاصرون له أرباباً كثيرة، وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها، وأقاموا لها العبادات وقدموا لها الضحايا المختلفة.

وكان كلما تقدم به العمر ازداد اعتقاداً بفساد تلك الأرباب، وأن هناك إليها واحداً حقيقياً لجميع الناس والشعوب.

وقد ازداد إيمان محمد بهذه الفكرة فقام يدعو أمته وأهله إلى فكرته، معلناً أن الله اصطفاه لهدايتهم وعهد إليه إنارة بصائرهم وهدم دياناتهم الباطلة.. وراح يعلن عن عقيدته وديانته.

وخلصة هذه الديانة التى نادى بها هذا الرسول هو أن الله واحد- لا إله إلا هو- ولذلك لا يجوز عبادة غيره.. وبأن الله عادل ورحيم بعباده.. وأن مصير الإنسان النهائى متوقف عليه وحده، فإن الله يؤجره فى الحياة الآخرة أجرا حسنا.. وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنه يعاقب فى الآخرة عقابا أليما.. وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم بعضا، ومحبة الله تكون بالصلاة، ومحبة الناس تكون بمشاركةهم فى السراء والضراء.. وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية والابتعاد عن الملذات الدنيوية.. وإنه يحتم عليهم ألا يخدموا الجسد ويعبدونه، بل عليهم أن يخدموا الروح ويهذبوها.

ومحمد لم يقل عن نفسه أنه نبي الله الوحيد بل اعتقد أيضا بنبوة موسى وعيسى وقال إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم. وفى سنى دعوته الأولى احتل كثيرا من اضطهادات أصحاب الديانة القديمة شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق، ولكن هذه الاضطهادات لم تثن من عزمه بل ثابر على دعوة أمته.

وقد امتاز المؤمنون كثيرا عن العرب بتواضعهم وزهدهم فى الدنيا وحب العمل والقناعة وبذلوا جهدهم فى مساعدة إخوانهم فى الدين عند حلول المصائب بهم.

ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونها احتراماً عظيماً ويعظمون قدرهم، وراح عدد المؤمنين يتزايد يوماً بعد يوم.

ومن فضائل الدين الإسلامى أنه أوصى خيرا بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم، فقد أمر بحسن معاملتهم. وقد بلغ من حسن معاملته لهم أنه سمح لأتباعه بالتزوج من أهل الديانات الأخرى.. ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما فى هذا من التسامح العظيم.

ثم ختم كلمته قائلا:

لا ريب أن هذا النبى من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخرا أنه هدى أمته برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا. ويكفيه فخرا أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلماء، ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام.

ولقد كانت آراء هذا الفيلسوف الروسى موضع تقدير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فكتب لهذا الفيلسوف يقول:

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك، سطر علينا نور من أفكارك، وأشرفت فى آفاقنا شمس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ووقفك إلى الغاية التى هدى البشر إليها، فأدرت أن الإنسان جاء هذا الوجود لينبت بالعلم، ويثمر بالعمل، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه، وسعياً يبقى ويربى جنسه، وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، وبما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها، فيما كدر راحتهم، وزعزع طمأنينتهم.

ونظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه، فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون كان مثالك فى العمل إمام يقتدى به المسترشدون. وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء كان مددا من عنايته للضعفاء الفقراء.. وإن أرفع مجد بلغته، وأكبر جزاء نلته على متاعبك فى النصح والإرشاد، هو هذا الذى سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين، فاحمد الله على أن فارقوك فى أقوالهم كما كنت فارقتهم فى عقائدهم.

هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك، فيما تستقبل من أيام عمرك، وإنا نسأل الله أن يمد فى حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك، ويسوق النفوس إلى التأسى بك فى عملك والسلام.

محرم المرأة

كانت المرأة عندهم كمتاع يقتنى ، وسلعة يستكثر منها ، ولا يهم الرجل بعد ذلك ما يصيب الأسرة من تفكك وانهيار ، ولا ما يترتب على تعدد الزوجات من عداوة وبغضاء بين النساء ، وبين الأبناء ، حتى تصيب الأسر حربا على نفسها ، ومصدر نزاع وعداوة بين أفرادها .
وكان الزوج لا يعنيه الأمر سواء عدل بين أزواجه أو جار ، سوى بينهن فى الحقوق أو المال ، فكانت حقوق الزوجات مهضومة ، ونفوسهن ثائرة ، وقلوبهن متنافرة .

وناهيك بالآثار السيئة التى تصيب الأسرة فتقوض أركانها وتشيع بين أفرادها العداوة والبغضاء والتناؤذ والشحناء من جراء هذه الفوضى العائلية .
وليت الأمر كان قاصرا على تعدد الزوجات إلى غير حد فى أبشع الصور وأوخم العواقب . بل كان الرجل منهم إذا قابل آخر معه ظعينته . «أى امرأة فى الهودج» هجم عليه فتقاتلا بسيوفهما فإن غلبه أخذ منه ظعينته واستحلها لنفسه ظلما وعدوانا .

ويكفى لكى ندلل على بؤس المرأة العربية وسوء حالها قبل الدعوة المحمدية أن نسجل أمرين : أولهما وأد البنات خشية الفقر أو العار .
وثانيهما حرمان المرأة من أن ترث الرجل بعد وفاته .

وجاءت الدعوة المحمدية فحررت المرأة من فوضى الجاهلية وأخرجتها من الظلمات إلى النور ، ومنحتها كافة حقوقها ، وأعادت إليها حرياتنا كاملة غير منقوصة .

وقد اعترف المستشرق الفرنسى أندريه سرفيه بداية القرن العشرين بفضل هذا الرسول فى كتابه: «الإسلام ونفسية المسلمين» فقال: «لا يتحدث هذا النبى عن المراه إلا فى لطف وادب.. كان يجتهد دائما فى تحسين حالها ورفع مستوى حياتها.. لقد كان النساء قبله لا يرثن بل كانوا متاعا يورث لأقرب الرجال، وكانهن مال أو رقيق. وعندما جاء الرسول قلب هذه الأوضاع فحرر المرأة وأعطاهما حق الإرث. ثم ختم كلمته قائلا:

«لقد حرر محمد المرأة العربية، ومن أراد التحقيق بعناية هذا النبى بها فليقرأ خطبته فى مكة التى أوصى فيها بالنساء خيرا وليقرأ أحاديثه المتباينة». ما أصدق هذا القول!

وما أكثر دفاع النبى عن المرأة وحقوقها!

ألم يقل فى خطبته التى قالها فى حجة الوداع:

«إن لنسائكم عليكم حقا وإن لكم عليهن حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تکرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا». أليس هو القائل:

«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا، وخياركم خياركم لأهلهم، وأنا خيركم لأهلى.. وما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم».

أليس هو القائل أيضا:

«يابنى إذا دخلت على أهلك فسلم، وليكن سلامك بركة عليك وعلى أهلك». وعن ابن عباس: «بنى لأتزين لامراتى كما أحب أن تتزين لى». ولها رأيها فى تزويجها وليس لوليها أن يعدو إذنها ويقسرها على من لا تريد إن كانت رشيدة. وعن عائشة رضى الله عنها: أن فتاة قالت للنبي ﷺ: إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته وأنا كارهة. فأرسل النبي إلى أبيها فجاء فجعل الأمر إليها. فقالت يا رسول الله: إنى قد أجزت ما صنع أبى، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء».

ومن أعجب المصادفات أن يجتمع ماكون فى زمن النبي أى فى سنة ٥٨٦ ميلادية لبحث: هل المرأة إنسان؟ وبعد بحث ومناقشة وجدل قرر أنها إنسان ولكن خلقت لخدمة الرجل وحده.. ولم يكد يصدر هذا القرار الجائر فى أوربا حتى نقضه محمد ﷺ فى بلاد العرب إذ رفع صوته قائلاً:

إنما النساء شقائق الرجال

بل قال للرجال:

ألستم حريصين على دخول الجنة؟ هذه الجنة التى تحرصون عليها هى تحت أقدام الأمهات وكل امرأة أم. وبذلك علم العالم أجمع أن المرأة إنسان مهذب، له من الحقوق ما للرجال من حقوق فى وقت كانت فيه أوربا تنظر إلى المرأة نظرة سخرية واحتقار.

وفى القرن السابع الميلادى عقد مؤتمر عام فى روما ليبحث فيه المجتمعون شئون المرأة فقرروا أنها كائن لا نفس له.. وعلى هذا فليس لها الحق فى أن ترث الحياة الآخرة.

ووصفها هذا المؤتمر أيضا بأنها رجس كبير، وحرّم عليها ألا تأكل اللحم وألا تضحك وألا تتكلم.. ونادى بعضهم بوضع أقفال على فمها.

وفى هذا الوقت كانت المرأة العربية تأخذ طريقها نحو النور وتحتل مكانتها الرفيعة فى المجتمع العربى وتقف بجانب الرجال فى معترك القتال.

لقد قالت الربيع بنت معوذ:

«كنا نغزو مع رسول الله ونسقى القوم ونخدمهم، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة».

وعن أم عطية الأنصارية قالت:

«غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم فى رحالهم وأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى».

وعن أنس قال:

«كان رسول الله ﷺ يغزو بأمر سليم ونسوة معها يسقين الماء ويداوين الجرحى».

فمن بعد هذا كله يكابر ولا يعترف لهذا النبى العظيم بأنه أول من نادى بتحرير المرأة؟! ومن هنا بعد هذا كله لا يعد هذا النبى الكريم منقذ المرأة من الذل والطغيان والعبودية.

ألا يحق بعد هذا كله أن يصف أندريه سرفيه نبيينا الكريم بأنه محرر

المرأة ومنقذها؟!

ألا يحق بعد هذا كله لسيو ريفيل أن يقول بدوره:

«إننا لو رجعنا إلى زمن هذا النبي لما وجدنا عملا أفاد النساء أكثر مما فعله هذا الرسول، فالنساء مديونات لنبيهن بأمور كثيرة رفعت مكانتهن بين الناس».

وهذا أيضا هو ما دفع العالم الألماني (دريسمان) (١٨٤٥-١٩٣٤م) أن يسجل قوله :

«لقد كانت دعوة محمد إلى تحرير المرأة السبب في نهوض العرب وقيام مدنيتهم.. وعندما عاد أتباعه وسلبوا المرأة حقوقها وحريتها كان ذلك من عوامل ضعفهم واضمحلال قوتهم».

وقد كتبت جريدة المونيتور الفرنسية تصور احترام الإسلام ونبيه للمرأة فتقول :

«لقد أحدث الإسلام ونبيه تغييرا شاملا في حياة المرأة في المجتمع الإسلامي.. فمنحها حقوقا واسعة تفوق في جوهرها الحقوق التي منحناها للمرأة الفرنسية.. أما تعدد الزوجات فقد أصبح اليوم أخف وطأة مما كان عليه.. ويخف انتشار هذه الظاهرة يوما بعد يوم.. ويجب علينا أن نلفت الأنظار إلى شرط موجود عند المسلمين، وهو أن من حق المرأة أن تشتترط على زوجها في عقد زواجها عدم الزواج بأخرى، فإذا لم يحترم هذا الشرط كانت امرأته في حل من أمرها».

أما الكونت هنرى دى كاسترى (١٨٥٠-١٩٢٧م) فقد تناول عقد الزواج عند المسلمين فقال :

«إن عقد الزواج عند المسلمين عقد يخول للمرأة حقوقا أدبية وحقوقا مادية من شأنها إعلاء منزلة المرأة في الهيئة الاجتماعية، فلها أن

تشتترط على زوجها عدم التزوج بغيرها أو غير ذلك من الشروط، فإن لم يف بهذه الشروط جاز للمرأة أن تطلب الطلاق». ألا يحق لنا بعد هذا كله أن نصف هذا النبى الكريم بأنه محرر المرأة ومنقذها؟!

الإسلام والسيف

«أنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية طرق أخرى. فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار.. لندعها تكافح بأيديها وأرجلها وأظافرها».

توماس كارليل

لقد تعرض توماس كارليل لأساليب الرسول في نشر دعوته فقال: «كانت نية هذا النبي قبل عام ٦٢٢ ميلادية أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة . وقد بذل في سبيل ذلك كل جهد جهيد ، ولكنه وجد الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته ودعوته وعدم الإصغاء إليها ، بل عمدوا إلى إسكاته بثتى الطرق ، من تهديد ووعيد واضطهاد ، حتى لا ينشر دعوته أو يصور رسالته.

وهذا ما دفعه إلى الدفاع عن نفسه والدفاع عن دعوته وكأن لسان حاله يقول: أما وقد أبت قريش إلا الحرب فلتنظروا إذن أى قوم نكون! لقد أصاب هذا الرسول فى رأيه ، فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق والصدق ، وأبوا إلا التمدادى فى الباطل ، فاستباحوا الحرمات ونهبوا الممتلكات ، وقتلوا الأنفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق».

واستطرد توماس كارليل يرد على القائلين بأن هذا النبي نشر دينه بحد السيف فيقول:

«أرى أن الحق ينشر نفسه بأى طريقة حسبما تقتضيه الحال.. ألم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا ، وحسبكم

ما فعله شارلمان (٧٤٢-٨١٤م) بقبائل السكسون.. وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان، أم بأية طريقة أخرى، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار.. لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم أبدا.. ولن يهزم منها إلا ما يستحق الفناء.. فالحقائق فى حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة التى لا تحترم منها إلا القوى الصحيح.

فحبوب القمح عندما نأخذها إلى باطن الأرض، وكثيرا ما تكون مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب، فإذا ألقيتها وهى مختلطة بكل هذه الشوائب فى جوف الأرض العادلة البارة، فإنها لا تعطيك إلا قمحا خالصا نقياً. أما الشوائب والقذى فإنها تبتلعه فى سكون وتدفنه فى باطنها دون أن تذكر عنه شيئا.. وما هى إلا فترة حتى نرى القمح ناميا يهتز كأنه سبائك الذهب.

هكذا الطبيعة فى جميع شئونها، فهى حق لا باطل، ولا تشتترط فى الشئ إلا أن يكون صادقا حرا.. فإذا كان كذلك حمته وحرسه وصانته وقوته، وإذا كان غير ذلك تنكرت له وتركته بلا حماية وبلا صيانة.

لهذا ترى لكل شئ، تحميه الطبيعة روحا من الحق والصدق. أليس شأن حبوب القمح هذه شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذا الوجود أو ستجىء إلى هذا الوجود؟!

فالحقائق تأتى إلى معترك الحياة، ثم يجىء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها فتموت وتذهب.. نعم يموت جسم كل حقيقة ويذهب. ولكن الروح تبقى أبدا. كل ما هنالك أن الروح تتخذ ثوبا أظهر وبدنا أشرف.

وتظل روح الحقيقة وجوهرها تنتقل من الأثواب والأبدان، أى إن جوهر الحقيقة لا يموت.

الأمر المهم فى الموضوع ليس فى نوع الثوب الذى لبسته الروح، إنما فى الروح ذاتها.. وهل هى حق؟.. وهل هى منبعثة من أعماق الطبيعة دون أن تهتم بنقاء الشئ أو عدم نقائه فالطبيعة عندما تحكم لا تقول: أفيك شوائب وأكدار؟ إنما تقول: أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا؟. وكأنها تريد أن تقول بعبارة أخرى: أفيك قمح؟ فهى لا تهتمها القشور والشوائب فالطبيعة ستبتلعها ولا يبقى إلا قمحا صافيا.

لقد جاء هذا الرسول من طريق الرفق والأناة والمنطق فأبوا إلا استرسالا فى الطغيان والاستكبار، وأبوا إلا ضلالا وفسادا. فلا غرو إذن أن يتدخل السيف ليقول كلمته. ولهذا قضى محمد بقية عمره، وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد ونضال.

هذه هى كلمات توماس كارليل التى يرى فيها أن من حق الإسلام أن ينشر دينه بثتى الوسائل، ولكنه نسى أن يقول إنه عندما لجأ النبى وأتباعه إلى الفتح والغزو لنشر دين الله، لم يكن ذلك مصحوبا باضطهاد أو تعذيب، بل ترك أمر الدخول فى الدين الجديد إلى رغبة الناس أنفسهم. ولكى نسجل ذلك بأقلام كتاب الغرب أنفسهم نذكر الفقرة التالية التى كتبها الكونت هنرى دى كاسترى فى كتاب له بعنوان «الإسلام» حيث قال:

«لجأت شيعة محمد ﷺ إلى الفتح، وهو سبب لا حرج فيه، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشهم المظفرة التى سارت سير الصواعق إلى

الشام وشمال إفريقيا وعبرت البحار، إلا إنهم مع ذلك لم يتركوا أثرا للظلم والتعسف في طريقهم، فلم يقتلوا أمة أبت الإسلام.. وكانوا إذا التقوا بأمة خيروها بين واحدة من ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها».

وليس هناك مثل واحد يذكر للدلالة على أن محمدا أرسل حملة واحدة يحمل فيها أمة بالقوة على اعتناق الإسلام. وليست هناك حادثة واحدة سأل النبي فيها إنسانا أن يؤمن به وسامه العذاب عندما رفض ذلك.

لم يحدث شيء من هذا قط، بل على النقيض منه، فقد عمل الكافرون جاهدين على ارتداد المسلمين عن دينهم.

ومن جانب آخر لم تحمل حروب المسلمين طابع العنف والقوة. وفي هذا الصدد يعترف الكونت هنري دي كاستري ويقول:

«لا حرج في أن ينشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة التي لم تترك وراءها أي أثر للتعسف والظلم، لقد زحف المسلمون في كل اتجاه ولكنهم لم يقتلوا أمة أبت الإسلام.»

ولو قارنا بين إغارة المتبربرين وبين إغارة المسلمين التي تلتها لوجدنا أن الثانية أخف ضررا وأكثر تسامحا، هكذا كانت الأوامر التي سار عليها المسلمون في مطلع عصرهم.

ويحسن هنا أن نقابل بين هذه الأمور وبين تعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بحصار المدائن ومعاملة الكلدانيين حيث نجد «إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الأمان، فإن قبلته فقد سلم

كل من فيها، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها، ومتى وفقك الله للظفر بها فحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام».

هذه هى كلمات الكونت هنرى دى كاسترى التى تدل فى وضوح وجلاء على أن المسلمين لم يخوضوا غمار المعارك مع أمة إلا بعد أن يخيروها بين واحدة من ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو الحرب.

وفى موضع آخر يتحدث الكونت عن تسامح المسلمين فيقول:

«لما استولى عمر على مدينة أورشليم لم يلحق بالمسيحيين أى ضرر، ولكن عندما استولى المسيحيون على تلك المدينة قتلوا المسلمين من غير إشفاق وأحرقوا اليهود بلا رحمة. لقد انتشر الإسلام فى جميع القارة الآسيوية بين القرن الثانى عشر والرابع عشر، ولم ينشأ عنه عسف ولا اضطهاد، حتى إن حكام المسلمين احترموا مدينة بيناريس لاعتبارها عند أهل الهند مدينة مقدسة، مع أن أهلها كانوا وقتئذ من البراهمة. من هذا يتحقق أن الدين الإسلامى لم ينتشر بالعنف والقوة، بل الأقرب للصواب أن يُقال: إن كثرة مسالة المسلمين ولين جانبهم كان سببا قويا فى انكماش دولتهم بعد ذلك».

ثم استطرده يقول:

«إن أكبر دليل على أن الإسلام قام على أكتاف البيان والحجة قبل أن يقوم على السيف بقاء الإسلام موطن الدعائم بالرغم من ضعف الدولة العربية الكبرى دون أن تعود أى أمة إلى ما كانت عليه».

نبي الإسلام في المؤتمرات الدولية والندوات العلمية

في المؤتمرات الدولية يجتمع علماء الدول كلها على اختلاف أجناسهم وألوانهم وديانتهم في مكان واحد ليتبادلوا الرأي والمشورة في الآراء العلمية والمشكلات الدولية. وفي العادة لا تضع المؤتمرات قراراتها إلا بعد أن ينال موضوع القرار أغلبية الأعضاء.

وما أكثر عددهم!

وما أكبر عقولهم!

ولهذا كانت قرارات هذه المؤتمرات الدولية موضع ثقة وصدق ويقين. والغريب في الأمر أن تأتي هذه الآراء والقرارات في القرن العشرين مطابقة لما جرى على لسان نبي الإسلام في القرن السابع الميلادي، أي بعد مضي أربعة عشر قرناً من الزمان.

ألا يحق له إذن أن يكون عالماً بيولوجياً^(١)؟!

ألا يحق له إذن أن يكون عالماً نفسانياً؟!

ألا يحق له إذن أن يكون فيلسوفاً اجتماعياً؟!

في عام ١٩٢٨م عقد المؤتمر الدولي التاسع عشر لمكافحة المسكرات في مدينة أنفرس ببلجيكا.. لبحث الموضوعات التالية:

– الأول: بحث مقدم من اللجنة الطبية للمؤتمر الذي يقرر عدم فائدة الخمر في تدفئة الأجسام ووقايتها من أثر البرد.

(١) البيولوجي علم الحياة.

- الثاني: بحث مقدم من اللجنة الطبية للمؤتمر وموضوعه.. جرعة طود (شراب من الوسكى المعتق).. وهل تصلح كعلاج للضعف والهزال؟.
- الثالث: بحث مقدم من اللجنة الاجتماعية للمؤتمر. هل فى
تحريم الخمر مصادرة للحريات العامة؟

وفى هذا المؤتمر العالمى وقف كبير أطباء مستشفى «فيينا» قائلاً:
لقد كان رجال الطب على خطأ عظيم إذ كانوا يوصون بتعاطى
جرعات من المشروبات الكحولية للاستفادة منها فى مقاومة البرد، لما
كان يبدو من تأثيرها الظاهر فى تدفئة الجسم عند تناولها. واستطرد هذا
الطبيب قائلاً:

إن الشعور بالدفء فى هذه الحال إنما هو شعور كاذب، إذ يعقبه
انخفاض درجة حرارة الجسم.

ثم فتح باب المناقشة فقال أحد الحاضرين:
كان أهل جزيرة أيسلندا، وهى من أشد البلدان برداً، يستعينون
على مقاومة البرد بتعاطى المشروبات الروحية فكثرت بينهم الوفيات
إلى حد أقلق بال ولاة الأمور، فألفوا لجنة لهذا الغرض، وأثبتت هذه
اللجنة أن كثرة الوفيات فى الجزيرة راجع إلى أن القوم يستنفدون حرارة
أجسامهم بما يتعاطون من المسكرات، فيصعد الدم من داخل الجسم إلى
سطح الجلد فتبيده برودة الجو تدريجياً، حتى تأتى على آخره فتنتهى
الحياة بانتهاء الحرارة.

وهذه الظاهرة هى التى دفعت برلمان أيسلندا على إصدار تشريع
يحرم الخمر فى البلاد ثم نهض من بعده مبعوث بلاد السويد فقال:

أريد ألفت أنظار أعضاء المؤتمر إلى ما حدث للدكتور سكوت (١٢٦٦-١٣٠٨م) وصحبه فى رحلتهم عندما ذهبوا فى منطاد لارتىاد القطب الجنوبي. فقد أدرك سكوت تأثير الخمر فى الأجواء الباردة فأوصى أصحابه بألا يشربوا خمرا حتى لا يفقدوا مناعة أجسامهم على تحمل البرد.. وعندما نسى أصحابه النصيحة وعمدوا إلى زجاجات الويسكى، كانت النتيجة كما دونها الدكتور سكوت فى مذكراته: «إن الذين اتبعوا نصيحته واجتنبوا شرب الخمر نجوا وحدهم من الموت دون غيرهم».

عندئذ قام ممثل مصر فى هذا المؤتمر وهو الأستاذ أحمد غلوش يقول: إن الضحايا البشرية التى أشار إليها حضرات الأعضاء قد سلم المسلمون من أمرها بسبب اتباعهم أوامر نبيهم محمد ﷺ. فقد حذرهم من شرب الخمر وأوضح لهم أنها لا تنفع فى مقاومة البرد.

ثم ترجم لهم الحديث النبوى التالى:

«عن ديلم الحميرى قال سألت النبى ﷺ وقلت: يا رسول الله إنا بأرض باردة نعالج فيها عملا شديدا، وإنا نتخذ شرابا من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا.

قال: هل يسكر؟

قلت: نعم.

قال: فاجتنبوه.

قلت: إن الناس غير تاركيه.

قال: فإن لم يتركوه فقاتلوهم».

عندئذ دهش أعضاء المؤتمر وقابلوا كلمته بالتصفيق والاستحسان، وطلبوا منه أن يملأ عليهم نص الحديث النبوي.

وعندما حان وقت الكلام عن جرعة طود وعدم الفائدة منها في التداوى وقف أحد أعضاء المؤتمر قائلاً:

هناك آلاف الآلاف من المرضى، كنا نحن معشر الأطباء نوصيهم ونصف لهم أنواعاً من الخمر تعجلاً لشفائهم، والحقيقة إننا كنا نعجل بالقضاء عليهم.

فما كان من ممثل مصر في هذا المؤتمر إلا أن وقف قائلاً:
لقد سبقكم إلى هذا نبي الإسلام فقد أوضح لقومه أن الخمر لا تنفع للتداوى. ثم ترجم لهم الحديث النبوي التالي: «عن طارق الجعفي رضى الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن الخمر فنهاه عنها. فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال: إنها ليس بدواء ولكنها داء». رواه مسلم وأبو داود الترمذي.

وراح ممثل مصر في هذا المؤتمر يعقب على هذا الحديث النبوي ويقول:

«لقد جاء نبينا الكريم محمد ﷺ بهذه الحقيقة العلمية الواضحة منذ آلاف السنين.. ونحن معشر المسلمين نتمسك بهذا النصح الثمين؛ حتى ليفضل أحدنا أن يقضى نحبه على أن يشرب دواء فيه مسكر حذراً من مخالفة الله ونبيه».

فعجب أعضاء هذا المؤتمر من مطابقة آرائهم ونظرياتهم الجديدة لأقوال نبي الإسلام وأدركوا أنهم لم يأتوا بجديد.

وعندما جاء دور الكلام عن موضوع هل في تحريم الخمر مصادرة للحريات العامة؟ وقف أحد أعضاء المؤتمر يقول: تبا لنا معشر الأوربيين مادمننا لا نطبق تحريم هذه المسكرات.. إن ضحاياها لا تقل عن ضحايا الأوبئة والحروب.. يجب أن نمنع الناس من إدمان الخمر ولو بالالتجاء إلى القوة والعنف فوقف ممثل مصر يقول:

ما جننا بجديدا! فسأل المجتمعون وكيف؟ فعاد يجيب:

«الدين الإسلامي لم يكتف بتحريم الخمر وشربها وبيعها وصنعها وحملها وتقديمها وبيع ثمنها، بل أنزل بشارب الخمر عقوبة بدنية وهلى جلده ثمانين جلدة، زجرا له وصونا للحريات العامة من أن تكون عرضة لاعتداء مدمنى الخمر».

فعلا هتاف الأعضاء وأبدوا إعجابهم الشديد بما سمعوا، بعد أن أدركوا أن نبي الإسلام قد سبقهم إلى هذه الآراء والأفكار التى زعموا أنها جديدة والتي جاءوا لبحثها والتشاور فى أمرها من أقصى المعمورة.

وفى يوم من الأيام اجتمع بعض علماء الغرب فى ندوة لهم يتباحثون ويتجادلون وكان بينهم طالب شرقى.

وطال بهم الجدل عن الحجر الصحى... متى بدأ؟... وكيف بدأ؟ وتشعبت الأمور أمامهم، وتباينت وجهات النظر، فإذا بهذا الطالب الشرقى يضع حدا لهذا الجدل الخاطئ بقوله:

إن فضل الحجر الصحى لا يرجع إلى أوربا... فأول من فكر فيه هو نبي الإسلام... محمد ﷺ.

فصاح الجميع فى دهشة وحيرة قائلين: وكيف كان ذلك؟
 فعاد الطالب الشرقى يوضح ويقول: إن نبي الإسلام هو أول من قال:
 «إذا سمعتم الطاعون فى أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها
 فلا تخرجوا منها».

ثم التفت إليهم هذا الطالب وقال: أليس هذا هو أفضل ما وصل إليه
 البحث العلمى والحجر الصحى الحديث؟!

وطالب هؤلاء العلماء بالحصول على نص هذه الأحاديث، فما كان
 من هذا الطالب إلا أن عاد إلى بيته ليحضر لهم نص هذه الأحاديث
 النبوية وترجمتها.

وبذلك تبدد جدلهم وانتهى نقاشهم بعد هذه الحقيقة الساطعة وصاح
 واحد منهم.

لقد كان نبيكم عالما بيولوجيا.

فتمتم الطالب وعاد يقول: يعد هذا النبى أول من فكر فى قانون
 الحجر الصحى للحيوان فقد قال «لايورد ممرض على مصح، وإن الجرب
 الرطب قد يكون بالبعير، فإذا خالط الإبل أو حككها أو آوى إلى مباركها
 وصل إليها بالماء الذى يسيل منه».

فعجب العلماء من أن تأتى هذه الحقائق العلمية عن الحجر الصحى
 على لسان هذا النبى!

ثم استطرد الطالب الشرقى يقول: ألا يحق لنا بعد هذا كله أن نعد
 نبي الإسلام أول من فكر فى مبادئ الحجر الصحى؟!

فأيده فى ذلك كل الحاضرين. وتقدم أحد هؤلاء العلماء قائلا:

لو علمت أوروبا بهذه الحكمة السامية وعملت بها حين اجتاحتها الطاعون فى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى لخفت حينئذ الخسائر التى منيت بها فى الأرواح، فقد قدر عدد الموتى الذين قضى عليهم هذا المرض بخمسة وعشرين مليوناً من الأنفس، كان سبب انتشار المرض المشار إليه هو نقل التتار له حين نزحوا إلى جنوب روسيا سنة ١٣٤٦م، ومنها حملة البحارة غرباً إلى حيفا فى أكتوبر سنة ١٣٤٧م، ولجهل القوم وقتئذ بالحجر الصحى طردت البحارة من تلك البقعة فانتشر المرض فى البلاد التى نزلوا فيها، بل إن سكان سينا أنفسهم حين انتشر فيهم المرض تفرقوا إلى نواح مختلفة، فنشروا المرض فى صقلية كلها، ثم حل المرض بجنوا وبيزا فى أوائل سنة ١٣٤٨م، وانتقل إلى إيطاليا فى نفس السنة، وانتشر فى جنوب فرنسا ومنها وصل إلى باريس، ومنها إلى إنجلترا وإيرلندا وألمانيا وما جاورها ولبث الحال كذلك حتى سنة ١٣٧٠ - ١٣٧٤م.

ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الحديث عن تزواج الأقارب ومساوئه ومرت الساعات وهم يستعرضون هذا الموضوع من شتى نواحيه فانبرى لهم هذا الطالب الشرقى يقول:

ما جنتم بجديد أيضاً.

فقالوا له: كيف؟

ما قلتموه الآن قاله نبى الإسلام من قبلكم.. أليس هو القائل «اغتربوا ولا تضووا»^(١)، أى لا تتزاجوا بين الأقارب، لئلا تضوى أولادكم فإن أولاد الغربية أنجب وأقوى، وأولاد القريبة أضعف وأضوى.

(١) أى لا تضعفوا ويصيبكم الهزال.

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الهندى

لقد كانت حياة محمد ﷺ موضع بحث وتحليل عند قادة الهند وكتابها وكبار مفكرىها وكان غاندى فى طليعة هؤلاء القادة والكتاب والمفكرين، فعندما احتفل الهنود بمولد الرسول فى بونا بالهند حضر غاندى هذا الحفل، وألقى فيه كلمة خالدة تحمل إعجاب غاندى بنبى الإسلام ورسالته وعظمته نسجلها فيما يلى:

«إخوانى... ليست صداقتى مع المسلمين بنت الأوس بل ترجع إلى خمسين عاما يوم كنت فتى - ولقد كانت زيارتى الأولى لإفريقيا الجنوبية بسبب اتصالى بشركة إسلامية فى تلك البلاد - وهناك تيسرت لى الفرصة أن أتصل بعلاقة وثيقة مع أصدقاء مسلمين لم تتراخ على مر السنين، وكذلك فى الهند، فأنتم تعلمون الرابطة المتينة التى كانت بين أسرة الأخوين على وبنى - وعلى الرغم من الاختلاف البين فى المبدأ بين شوكت على (١٨٧٣ - ١٩٣٨م) نفسه وبنى فإنه يعلم أننى دائما صديق حميم.

ولما كانت علاقتى بالمسلمين على هذا النحو من المتانة والألفة فقد شعرت برغبة لدراسة حياة الرسول الكريم ﷺ وشرعت بذلك فى إفريقيا الجنوبية، إلا إننى لم أكن فى ذلك الحين ملما باللغة الأوردية إلاما كافيا، وسجنى المتتابع أتاح لى فرصة قراءة كتب سيرة هذا النبى الكريم، وما كتبه عنه حكيم صاحب أحمد خان، تلك الكتب التى طلبتها وجاءتنى إلى السجن، وقرأت أيضا أحاديث صحابة الرسول وكانت هذه مترجمة إلى اللغة الإنجليزية.

وقد أدت بى هذه الدراسات إلى الاعتقاد بأن القرآن والتوراة كتابان مقدسان، فقدستهما أنا بنفسى كما أقدس كتابينا الوبدا وغيتا. لقد كان محمد نبيا عظيما وكذلك كان المسيح، وقد أصبحت أعتقد أنهما كانا لا يمشدان إلا الحق، ولا أجد جديدا فيما أقوله الآن. وكانا يخافان الله... وإنما أصف فقط ما يخامر نفسى، لقد لاقى محمد كثيرا من الاضطهادات ولكنه كان شجاعا لم يخف غير الله ولم يهرب أى إنسان.

كان النبى العظيم فقيرا زاهدا فى متاع الدنيا فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أن يكون ثريا كبيرا لو أراد.

لقد ذرفت الدموع وأنا أقرأ تاريخ ذلك الرجل العظيم، إن كيف يستطيع باحث عن الحقيقة مثلى، أن لا يطأطئ الرأس أمام هذه الشخصية التى لم تعمل إلا من أجل مصلحة البشرية كلها.

ولقد درس غاندى حياة المنبوذين فى الهند فتألم لحياتهم، وأراد أن يضرب للهندوس أنفسهم، مثلا طيبا، بصفته زعيما دينيا، وأراد أن يعلمهم أن طبقة المنبوذين من البشر ليسوا أنجاسا كما يعتقدون. ولكى يضرب لهم مثلا عمليا زوج ابنه الأكبر بواحدة من المنبوذين حتى يعلمهم أنه لا فارق ولا اضطهاد ولا نجاسة.

وقد علق أحد كتاب الهند فقال: لقد اقتفى غاندى فى عمله هذا أثر نبى الإسلام فى تحطيم القيود الاجتماعية والفوارق الطائفية.. لقد كان غاندى نفسه يعترف ببحثه لسيرة هذا النبى وحياته، فقد قال قبل صيامه إنه يتشبه بنبى الإسلام فى التماس المثل الأعلى فى التضحية وما

فعله غاندى فعله نبي المسلمين من قبل.

فقد كانت زينب الأَسديّة ذات حسب ونسب فهي ابنة عمّة رسول الله، تزوجها زيد معتوق النبي ﷺ، فكان الفارق الاجتماعي كبيراً، ولم يكن هناك تقارب بين حسبه وحسبها ونسبه ونسبها، حتى سمى زيد بعد ذلك إلى التخلص من هذا الزواج، فنصح له رسول الله أن لا يفعل، فكانت حياته الزوجية لا وئام فيها ولا ائتلاف، ففارقها في النهاية، وتزوجها النبي من بعده لا رغبة في الزواج منها، بل ليضرب للعرب مثلاً صادقاً، وليبديد من أذهان العرب بعض تقاليدهم البالية، وبذلك حطم الفوارق الاجتماعية التي كانت تدعو إلى انحطاط المرأة إذا تزوجت برقيق أو معتوق.

وما كان عمل غاندى لتخطيم الفوارق الاجتماعية بين المنبوذين والهندوس إلا صورة مما فعله نبي الإسلام للأخذ بيد الأرقاء والمعتوقين. وقد تناول الدكتور تارا في كتاب له عالج فيه أثر الدين المحمدي في الحضارة الهندية فقال:

«لقد كانت لدعوة هذا النبي وتعاليمه ومبادئه أثر واضح في حياة من آمنوا به.. وبدا ذلك في وضوح وجلاء في الهند ذاتها بعد دخول دينه واعتناق دعوته، لقد بدأ أثر ذلك واضحاً في احترام المرأة وفي إضعاف الفوارق بين طبقات البشر وغير ذلك مما عرف عن شريعة هذا النبي ودينه وتعاليمه».

ويقول الدكتور تارا في موضع آخر... «لا يمكن لدنيّة من المدنيات أن تدعى بأنها لم تتأثر من قريب أو بعيد بدعوة هذا النبي الكريم ودينه

وشرائعه، لقد كان الدكتور تارا محقا إلى أبعد حد في هذا القول.. فأوروبا بعلمها وآدابها وفنونها تأثرت إلى حد كبير بهذا الدين وما تبعه من انقلاب فكري جديد.. وما يقال عن أوروبا يقال أيضا عن بعض مظاهر الحضارة الهندية».

وقد تناول السيد أبو الحسن علي الحسنی الندوی نائب معتمد دار العلوم بندوق العلماء بالهند شخصية نبي الإسلام بالبحث والتحليل في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» فقال:

جاء محمد هذا النبي الكريم فرأى بعين الأنبياء بشرا هانت عليهم كرامتهم.. رأى بشرا يعبدون الحجر والشجر.. رأى بشرا فيهم الذئب راعيا والخصم الجائر قاضيا والشيخ التقى محروما.

جاء هذا النبي الكريم فرأى عادات قبيحة وأفعالا منكرة تدفع البشرية إلى الفناء وهوة الهلاك.. رأى معاقرة الخمر إلى حد الإدمان، رأى الخلاعة والفجور إلى حد القوضى، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع، ورأى الظلم إلى حد وأد البنات وقتل الأبناء.

جاء هذا النبي الكريم فرأى المواهب البشرية ضائعة، من غير أن توجه توجيهها صحيحا حتى أضحت وبالاً على أصحابها لقد أضحت الشجاعة فتكا وهمجية. والوجود تبذيرا وإتلافا، والأنفة حمية جاهلية، والذكاء خديعة وطريقا إلى الشر والضلال.

جاء هذا النبي الكريم فرأى البشر كخامات لم تحظ بصانع ماهر، يجعل منها هيكل حضارة عظيمة.. ورآها كألواح خشبية لم يسعدها الحظ بنجار يحولها إلى سفينة تشق بحر الحياة.. ورأى الأمم كقطع من الغنم ليس لها راع، ورأى السياسة كجمل هائج حبله على غاربه.

رأى النبي الكريم كل ذلك فنادى بدعوته وجاهد من أجلها جهادا عظيما، فخلق من الضعف قوة، ومن الظلم عدلا، ومن الفوضى نظاما. لقد خلق شعبه خلقا جديدا فكان منه الأمير العظيم والقاضي العادل والقائد العابد، والوالى المتورع، والجندي المتقى.

لقد كانت بلاد العرب وحدات مفككة، وقبائل متناحرة، وشعوبا مظلومة مضطهدة، فجاء هذا النبي فأيقظها من رقدتها وخلق منها خلقا جديدا، فأصبحت الطبقات والأجناس بفضلته متعاونة متساندة، لا يبغى بعضهم على بعض. وأصبح كل واحد في المجتمع راعيا ومسئولا عن رعيته.. الإمام راع ومسئول عن رعيته.. والرجل راع ومسئول عن رعيته.. والمرأة راعية في البيت ومسئولة عن رعيتهما.. والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته. وهكذا أصبح المجتمع الإسلامى مجتمعا رشيدا عاقلا مسئولًا عن أعماله وهكذا أصبح المسلمون أعوانا على الحق، أمرهم شورى بينهم، يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم، فإن عصى الله فلا طاعة له عليهم.

ولم تأت دعوة هذا النبي لتبديل باطلا بباطل وعدوانا بعدوان، وتحريم شيئا فى مكان ما وتحله فى مكان آخر، ولم يبعث كزعيم قومى أو قائد وطنى لينقل حكم هذه الشعوب من يد إلى يد أخرى ولم تكن دعوته لأمة دون أخرى ولا لوطن دون وطن، بل كانت للبشرية كلها وللضمير العالمى كله، لم يكن ﷺ من عامة المصلحين الذين يدخلون البيوت من ظهورها أو يتسللون من نوافذها لمعالجة بعض أمراضها الاجتماعية، بل جاء يدعو إلى الإصلاح من بابه، فوضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه، ذلك القفل الذى أعييا فتحة كل المصلحين لقد وضع مفتاح النبوة على قفل الطبيعة فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب، وبذلك أصاب الجاهلية فى مقتلها.

وهكذا أرغم العالم العنيد أن يتجه اتجاهها جديدا يفتح به عهدا سعيدا، ذلك هو العهد الإسلامي الذي لا يزال غرة في جبين الزمن والذي عد بحق انقلابا فريدا في نوعه.

لقد كان هذا الانقلاب غريبا في كل شيء!!

لقد كان غريبا في سرعته وعمقه!! لقد كان غريبا في سعته ووضوحه. لقد كان غريبا في قربه إلى الفهم.

ولولا دعوة هذا النبي العظيم لما هبت الدول العربية من رقتها. ولولاها ما كان الشام والعراق وما كان وادي النيل كله.. ولا كانت الدنيا كما هي الآن حضارة وعقلا وخلقا.

فهذا التاريخ المجيد، وهذا الأدب الزاخر، وهذه الحضارة الكبيرة، وهذه الدول العربية الواسعة.. ما هي إلا فضل من أفضال هذا النبي الكريم ودعوته المجيدة.

نبي الإسلام كما يراه مولانا محمد علي رئيس الرابطة الإسماعيلية بالهند

لقد تناول هذا المؤلف الهندي في كتابه «محمد نبي الإسلام» مظاهر كثيرة من حياة هذا النبي الكريم نبدأها بأثر رسالته ودعوته في حياة العرب أنفسهم، وكيف خلقت منهم خلقا جديدا، فهو في هذا الصدد يقول: «ظهر النبي في وقت كان العرب فيه قد انحدروا إلى الحضيض، فما كانت لهم معتقدات دينية صحيحة، ولا مبادئ سياسية أو اجتماعية سامية، وكانوا مفككين لا رابط بينهم، كل قبيلة وحدة مستقلة، وكل منها في قتال مع الأخرى.

حاولت اليهودية أن تهذبهم فما استطاعت، وحاولت المسيحية فمئيت بخيبة الأمل، كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح. ولكن محمدا ﷺ استطاع في سنوات معدودات أن يقضى على جميع مظاهر الفساد والوثنية، ووجه أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة إلى طريق الهدى والعرفان فباتوا دعاة حكمة ورشاد بعد أن كانوا دعاة وثنية وفساد. لقد سمو بفضل الإسلام إلى ذروة الخلق الكريم، وكانت أعمالهم في دنياهم مظهرا لحقيقة تقواهم، وبذلك دانت لهم الإمبراطوريات العظمى وذابت بحرارة إيمانهم كما يذوب الجليد بحرارة الشمس، ولم يقنعوا بغزو الأقطار الشاسعة، بل أقاموا في أرجائها إمبراطورية عظيمة دامت اثني عشر قرنا من الزمان.

لقد وصل المسلمون إلى ذروة الرخاء الاقصادى والسمو الاجتماعى والنضوج العلمى.

إذن لقد كانت تعاليم النبى ناجعة صالحة للقضاء على جميع العلل الاجتماعية والمساوى الخلقية وليس الطبيب البارع من يدعى أنه الطبيب الأول، بل الطبيب البارع من يستطيع شفاء أكبر عدد من الحالات المستعصية، كذلك المصلح الناجع ليس من يدعى أنه المصلح الأول، بل من يقوم بإصلاح العالم ويهديه إلى الطريق المستقيم. وهذا هو الذى جعل النبى فوق هامات المصلحين».

وهذا هو الذى جعل دائرة المعارف البريطانية فى إحدى طبعاتها تقبول: «لقد كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة، وأكثرها توفيقا ونجاحا».

وقد تناول رسالة النبى من ناحية الإخاء الإنسانى والسلام العالمى فقال: «لقد وضع هذا النبى أساس سلم عالمى. لم تضع الأسس التى تضمن للأفراد أن يعيشوا فى سلام جنباً إلى جنب فحسب، بل علم الناس كيف تعيش القبائل والشعوب فى سلام».

لقد علمهم كيف تعيش العقائد والأديان جنباً إلى جنب فى وئام وسلام، فعاش المسلمون واليهود والنصارى قروناً عديدة فى وفاق ووئام». أما عن أخلاق النبى ﷺ فكتب يقول: «كانت البساطة من صفات هذا النبى، كان لا يتردد فى أن يعمل كل شىء بيده، كان يساعد زوجاته فى أعمالهن المنزلية... وكان يعنى بحيواناته ويحلبها بنفسه، وكان يشترك فى بناء المساجد وحفر الخنادق، وكان يشتري حاجياته

المنزلية بنفسه سواء أكان ذلك لبيته أم لجيرانه أم للضعفاء من النساء وكانت جميع أعماله وتصرفاته مطبوعة بطابع البساطة.

كان متواضعا زاهدا يأكل كما يأكل الناس ويجلس كما يجلسون، كان يكره أن يستقبله الناس وقوفا.. وإذا هم أحد يقبل يده سحبها وقال له: هذا سلوك قوم غيرنا مع ملوكهم.

وكان إذا دعاه عبد أو أحد الأرقاء إلى بيته لبي دعوته ليشرعه باحترامه. وكان الوفاء أيضا من طبيعته، فكان يحب أصدقاءه حبا جما وكان إذا صافحهم بيده لا يكون البادئ بسحب يده.

كان يقابل كل إنسان بوجه باسم.. وهذا ما دعا جرير بن عبد الله أن يقول: «ما من مرة رأيت فيها النبي إلا وكانت الابتسامة على وجهه وكان في حديثه متواضعا، لا ترى فيه مظاهر الترفع والكبرياء، وكان إذا رأى الأطفال يداعبهم ويحملهم بين يديه».

وكان النبي ينظر إلى الجميع نظرة واحدة، ويساوي بينهم مساواة مطلقة، لا فرق بين مسلم وغير مسلم، وصديق وعدو.. كان الجميع أمامه متساوين متشابهين.

وكانت نزاهته وأمانته وعدله مضرب الأمثال، حتى قبل نزول الوحي عليه، فكانوا يرضون به حكما في منازعتهم، وكان أهل المدينة من وثنيين ويهود يحتكمون إليه كلما قام بينهما خلاف.

وعلى الرغم من حقد اليهود على المسلمين فقد كانا يحكمان النبي إذا وقع خلاف بين مسلم ويهودي وكان النبي يقضى لصاحب الحق دائما دون اعتبار لدينه.

وكان النبي يعامل الناس كأنه واحد منهم، لا يزيد عليهم في شيء ولم يعرف عنه أنه وضع نفسه في مرتبة أعلى من مرتبتهم، وحدث وهو سيد المدينة أن جاءه يهودى وكان له دين عليه، وطلب منه تسديد هذا الدين في غلظة وخشونة، فغضب عمر ونهر اليهودى لخشونته، ولكن النبي أخبر عمر أنه كان من الواجب عليه أن ينبهه إلى دفع الدين وشكر الدائن، وأن يلفت نظر الدائن إلى طلب دينه بالحسنى!! ودفع النبي دينه إلى اليهودى وشكره، فأثرت أخلاق النبي الحميدة فيه فاعتنق الإسلام.

وحدث أن خرج النبي مع أصحابه يوماً وحن موعد إعداد الطعام فقسموا العمل بينهم، فاختر النبي أن يخرج لجمع الأحطاب لقد كان سيدهم ونبيهم ومع ذلك قام بنصيبه من العمل كواحد منهم. أما معاملاته لخدمه ففيها الدليل على عدله المطلق، لقد روى أنس أن النبي لم يزجره مرة واحدة خلال العشر سنوات التي قضاها في خدمته ولم يذكر عنه أنه عنف خادماً لخطأ ارتكبه، وما ضرب عبداً أو امرأة طول حياته.

ومن صفات هذا النبي الكريم كرمه وتسامحه خصوصاً مع أعدائه وكان ذلك شيئاً فريداً لم يرد له في التاريخ مثل.

كان عبد الله بن أبي سلول عدواً للإسلام والمسلمين. كان يقضى الليل والنهار في تدبير المكائد والمؤامرات للمسلمين، وكان يحرض اليهود على العرب والعرب على اليهود، وعلى الرغم من ذلك طلب له من الله الرحمة والغفران، وخلع قميصه ليكفن عبد الله به.

أما أهل مكة الذين آذوه وعذبوه فقد عفا عنهم بعد أن عاد إليهم فاتحاً، كان فى مقدروه أن يرد لهم بعض ما فعلوه ولكن عفا عنهم، وتناسى ما ناله على أيديهم من عذاب واضطهاد.

وكان حبه للصدقات لا يجارى، فلا يصد السائل مهما كانت الظروف وكان يطعم الجائع ولو بطعامه.. وعندما كان على فراش الموت وزع كل مابقى من ماله على الفقراء والمحتاجين، وكان فى مطلع حياته معروفاً بعطفه العميق على الأرمال والأيتام والفقراء والمستضعفين، وكان دائم الدفاع عن حقوق النساء أمام الرجال، والعبيد أمام سادتهم والمحكومين أمام حكامهم حتى مخلوقات الله الصماء كان قلبه يفيض نحوها بالرحمة والشفقة.

لقد تحدث عن الرجل الذى رفع الماء من البئر ليروى به عطش كلب مسن، وقال: إنه من أهل الجنة، وتحدث عن امرأة حبست قطنها وجوعتها وقال عنها: إنها تستحق العقاب والجزاء.

والآن يحلو لنا أن نتساءل هل تغيرت مظاهر حياة هذا الرسول الكريم عندما دانت له الأمور وأصبح حاكماً لأمة العربية الجديدة؟ لقد ظل هذا النبى فى جميع مراحل حياته سواء أكان راعياً أم تاجراً أم قائداً أم حاكماً على وتيرة واحدة. لقد تغيرت المعايير وتبدلت الأحداث، ومع هذا ظلت نفسه العظيمة كما هى دون أن تتغير أو تتبدل.

لقد انتقل من ظل اليتيم إلى ظل المجد والسلطان من غير أن نلاحظ

عليه أى تغيير فى طريقة معيشتة.. لقد بقى طعامه ولباسه متواضعا كما كان فى أيامه الأولى.

عجيب أن يملك إنسان أسباب القوة والجاه والثروة ومع ذلك لا يتعلق بها، تاركا إياها لخدمة البشرية كلها.

لقد أصبح حاكما لأمتة ودولته، ومع هذا بقى بيته كما هو، لا أثاث فيه غير حصير من سعف النخيل لينام عليها. وبجانبها إناء ليشرب منه. وكثيرا ما تعاقبت الأيام والليالى بلا وقود ولا غذاء. لقد كانت مظاهر الترف وأسباب الثراء موفورة له ورهن إشارته، ومع ذلك كان زاهدا فى الحياة ليكون لأهله وقومه قدوة حسنة.

وعندما بلغ سن الخامسة والعشرين من عمره تزوج زوجته خديجة وهى أرملة تكبره فى السن.

لقد بقى النبى فى عشرينها حتى بلغ الخمسين من عمره وكان تعدد الزوجات وقتئذ عند العرب أمرا عاديا مألوفا وكان فى مقدوره، وهو ذو حسب ونسب، أن يتزوج من أجمل فتيات العرب وأصغرهن، ولكنه لم يفعل ولو كان ممن يثيره جمال النساء، لما تزوج أرملة تكبره فى السن، وهو فى ريعان شبابه وميعة صباه، ولما ظل معها حتى الخمسين من عمره. وهناك دليل آخر على أن جمال المرأة وشبابها لم يكن موضع اهتمام هذا النبى الكريم لقد تزوج بجانب زوجته عائشة التى كانت على قدر كبير من الجمال زوجات أخريات، أكبر منها سنا وأقل منها شبابا وجمالا ونضرة، إذن لم يكن هذا النبى متأثرا بمؤثرات عاطفية واهية،

بل كان متأثراً بدوافع سامية وأغراض نبيلة.

فليس من المعقول أن الرجل الذى استطاع أن يبقى بغير زواج فى استقامة وحسن سمعة حتى الخامسة والعشرين.. وليس من المعقول أن الرجل الذى ظل من الخامسة والعشرين حتى الخمسين من عمره يعاشر زوجة تكبره سناً.. ثم يأتى فى أواخر أيامه ليفكر فى زيجات بدافع عاطفى أو ميل شخصى.

يجب أن نلقى نظرة على الحقائق التاريخية التى أدت إلى أن يتزوج النبى عدة مرات من السنة الثالثة إلى السنة السابعة للهجرة، مع أنه قضى قبل ذلك ثلاثين سنة وهو زوج لواحدة. لقد توالى المعارك بين المسلمين والمشركين.. وكان عدد المسلمين وقتئذ محدوداً إلى حد كبير. وقد أضعفت الحروب نسبة الرجال إلى النساء. فكلما زاد عدد الشهداء زاد عدد الأرمال المحتاجات إلى رعاية وعناية، ولهذا تزوج بالأرامل رغبة فى رعايتهن وصيانتهم ولو كان يجرى وراء عاطفة أو لذة لتزوج أبكاراً، وما كان من العسير الحصول على العذارى، فشرف عظيم أن يصبح آباء العذارى أصهاراً للنبى.

ولكن تزوج بالأرامل لغاية سامية وهى العناية بزوجات أصدقائه الذين استشهدوا فى سبيل نشر دينه.

وكان للسياسة دخل كبير فى تعدد زوجاته، فتزوج بعضهن لغرض سياسى وما زواجه من جويرية من بنى المصطلق إلا لهذا الغرض، وما كان زواجه من صفية أرملة أحد سادة اليهود إلا لرغبته فى التوفيق بين المسلمين واليهود.

أما زواجه من زينب فكان لاعتبارات سامية. فقد تزوجها زيد معتوق النبي ﷺ وكان الفارق بينهما كبيرا، فكان ذلك عاملا من عوامل عدم الوفاق بينهما، فاضطر زيد إلى الفراق، فنصحته الرسول أن يتريث.. ولكن انتهى هذا الزواج بالطلاق.

ولما فارقتها زيد تزوجها النبي ﷺ من بعده، لا رغبة في الزواج، بل ليحطم بعض الفوارق الاجتماعية والتقاليد البالية، وليزيل من أذهان العرب أن الطلاق يحط من المرأة المطلقة ويقلل من مكانتها وقد رفع بعمله هذا شأن المطلقات جميعا ولو أنه كان يريد الزواج بزينب لإعجابه بها أو رغبة إليها لما رفضها من قبل، ولما زوجها بنفسه إلى زيد؛ فعدم زواجه منها وهى عذراء ثم زواجه منها بعد طلاقها ليقوم دليلا على أن هذا الزواج قام لاعتبارات اجتماعية قبل أن يقوم على اعتبارات عاطفية. هذه صورة عن نبينا الكريم كما صورها مولانا محمد على الهندي وكلها تنبض بعظمة هذا الرسول وسموه وعبقريته.

بطاقة حياة

الدكتور عز الدين فراج

● هو الأستاذ الدكتور عز الدين فراج- عز الدين محمد فراج

● ولد بمحافظة سوهاج- بصعيد مصر- فى ٦ إبريل سنة ١٩١٣م.

● حصل على بكالوريوس العلوم الزراعية من كلية الزراعة، جامعة

فؤاد الأول - القاهرة- فى سنة ١٩٣٦م وحصل على دبلوم الدراسات

العليا فى البيولوجى سنة ١٩٤٥م.. وعلى الماجستير سنة ١٩٤٦م ونال

درجة الدكتوراه فى البساتين (الخضر واقتصادياتها) سنة ١٩٥٦م.

● تدرج فى سلك الوظائف الجامعية- بكلية الزراعة- جامعة فؤاد

الأول- القاهرة- فعمل معيدا سنة ١٩٣٦م.. وتولى منصب أستاذ كرسى

قسم الإنتاج النباتى سنة ١٩٦٠م.. ثم عمل أستاذا متفرغا بقسمى الإنتاج

النباتى والبساتين سنة ١٩٧٣م.

● تولى رئاسة لجنة وضع (دائرة المعارف العلمية المصورة للبيئة

العربية العالمية للنبات والحيوان)، كما قدم للمكتبة العلمية أكثر من

سبعين بحثا علميا زراعيا فى مجال زيادة الإنتاج.

● من مؤلفاته العلمية والزراعية: (الغذاء الكامل) و (تعمير الصحارى

المصرية).

ولقد كلفته وزارة الثقافة المصرية بترجمة العديد من الكتب العلمية.

وشارك فى وضع جزء من (الموسوعة المصرية الرسمية عن النباتات

المصرية).

● وله -أيضا- (موسوعة علمية مصرية للشباب عن الإنسان والنبات والحيوان والصناعة).

كما وضع ٢٢ جزءا من (الموسوعة العلمية المصرية المبسطة للناشئين).

● شارك فى العديد من المؤتمرات العلمية والزراعية- فى الإنتاج العلمى والزراعى والاقتصادى.

● ساهم فى تطوير الجامعات المصرية.. وفى وضع مناهج التعليم الزراعى.. ومناهج معهد المعلمين والمعلمات.. وفى تخطيط المشروعات الزراعية لمديرية التحرير.. ومشروعات مصر الخاصة بالتنمية والإنتاج الزراعى.

● عالج مشكلة العقم الكلى والجزئى فى أشجار البرقوق والكمثرى لزيادة محصولها.

● استخدم عمليات التطعيم فى زراعة الخضروات.

● فازت مؤلفاته الزراعية فى مسابقات تأليف الكتب الزراعية.

● حصل على الجائزة الأولى فى البحث العلمى سنة ١٩٥٨م.

● غير هذا الإنتاج الغزير فى الأبحاث العلمية والزراعية، قدم للمكتبة الإسلامية العديد من المؤلفات.. منها: (حياة محمد)، و(عظمة الرسول)، و(الإعجاز العلمى والإسلامى) إلى جانب أكثر من عشرة كتب فى المجالات الأدبية والاجتماعية منها (فن القراءة) و (العالم العربى الجديد) و (نحو قرية أفضل).

● حصل على الجائزة الأولى فى التأليف الأدبى والاجتماعى- أعوام

سنة ١٩٤٧م وسنة ١٩٤٨م وسنة ١٩٥٥م وسنة ١٩٦٣م وسنة ١٩٦٨م.

● من الكتب التي ترجمها، وقدمها للمكتبة العربية والإسلامية في هذا الكتاب الفذ: (نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي).
الذي طبع سنة ١٩٥٣م بمطبعة الجهاد، ويومها كان عالمنا الجليل مدرسا بجامعة فؤاد الأول القاهرة الآن).
رحمه الله رحمة واسعة، ونفعنا بما قدم لأمته من زاد فكري صالح للعطاء^(١).

(١) انظر (الموسوعة القومية للشخصيات المصرية) - الجزء الأول - الطبعة الثانية - ص ٦٨

موضوعات الكتاب

« تقديم بقلم الدكتور محمد عمارة

- ١- بطاقة حياة ١
- ٢- بين يدي هذا الكتاب ٣
- مقدمة ١٩
- العالم قبل الدعوة المحمدية ٢١
- نبي الإسلام في مرآة الفكر الإنجليزي ٢٦
- «توماس كارليل» ٢٦
- «برنارد شو» يكرم نبي الإسلام ٣٥
- نبي الإسلام كما يصوره «بورسورث سميث» ٤٢
- نبي الإسلام كما يراه «السيروليم ميور» ٤٤
- نبي الإسلام في مرآة الفكر الفرنسي ٤٨
- «لامرتين» شاعر فرنسا الكبير ٤٨
- نبي الإسلام كما يصوره «إميل درمنغم» ٥١
- نبي الإسلام في مرآة الفكر الأمريكي ٥٤
- عظمة الرسول كما يراها «واشنطن أرفنج» ٥٤
- نبي الإسلام كما يصوره «ر.ف. بودلي» ٥٩
- نبي الإسلام في مرآة الفكر الروسي ٦٧
- تولستوى يتحدث عن نبي الإسلام ٦٧
- محرر المرأة ٧١

- الإسلام والسيف ٧٧
- نبى الإسلام فى المؤتمرات الدولية ٨٢
- نبى الإسلام فى مرآة الفكر الهندى ٨٩
- نبى الإسلام كما يراه مولانا محمد على ٩٥
- بطاقة حياة ١٠٣

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٢١١٥٤
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7903-8

١ / ٢٠١٣ / ٥٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)